

قطرات الماء

SUITEKI

للكاتب الياباني

ميدوروما شون

MEDORUMA SHUN

ترجمها عن اللغة اليابانية

د. أحمد فتحي مصطفى

Translated by

Dr. Ahmed F. Mostafa



قطرات الماء

المؤلف :

ميدروما شون

ترجمة وتقديم :

د. أحمد فتحي

الطبعة الأولى : يوليو 2005

رقم الإيداع:

٢٠٠٥/١١٢٥٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

977-5634-17-2

حقوق الطبع محفوظة

تصميم وتنفيذ الغلاف:

كامل جرافيك



الإشراف العام

د. طلعت شاهين

مدير التحرير

علي حامد

المراسلات:

ص.ب.: 22

الحي المتميز - مدينة 6 أكتوبر

مصر

Tel.:

(202) 835 40 69

Mob.:

(2012) 410 20 08

e-mail:

sanabook@maktoob.com

sanabook@hotmail.com

SUITEKI by Shun Medoruma
Copyright©1997 by Shun Medoruma
Original Japanese edition published by
Bungeishunju Ltd.
Arabic translation rights arranged with
Shun Medoruma
through Japan Foreign-Rights Centre

The publisher gratefully acknowledges the support of
the Japan Foundation in the translation of this book

تقديم

في يوم من أيام الحر القائظ في النصف الأول من شهر أغسطس (آب) عام 2004.. هناك في جزيرة "أوكيناوا" التابعة لليابان والتي تقع على مسافة ساعة وخمس وأربعين دقيقة بالطائرة من الجزيرة الأم لليابان "هونشو" .. قض سكون المدينة الهادئة الصغيرة "غينوان" صوت انفجار رهيب أثار الرعب بين سكانها المسلمين، لم تمر سوى دقائق حتى بدأ ينتشر خبر ذلك الانفجار بين أهل المدينة بسرعة كبيرة.. فقد كان هناك دخان أسود كثيف يرتفع من ناحية تلك البقعة الخضراء التي توجد بها جامعة "أوكيناوا" الدولية.

نعم.. كان ذلك الدخان يرتفع من داخل حرم الجامعة.. لكن السبب لم يكن لانفجار أنبوب غاز أو أسطوانة بوتاجاز أو غيرها من تلك الأسباب المتوقعة، بل كان السبب سقوط طائرة مروحية ضخمة فوق أحد أبنية الجامعة بسبب عطل فني، الأهم في ذلك الأمر أن الطائرة المروحية الضخمة لم تكن تابعة لهيئة مدنية يابانية أو حتى لجيش الدفاع الياباني وإنما كانت طائرة تابعة للقاعدة العسكرية الأمريكية الملاصقة لذلك الحرم الجامعي.

مسألة سقوط الطائرة بسبب عطل فني ما في حد ذاته ربما تؤخذ على أنها أمر عادي تتناوله الأخبار ليوم أو يومين في صفحة الحوادث، لكن هذه الحادثة كانت لها أبعاد مختلفة أيقظت مشاعر كانت قد فترت لدى اليابانيين، وبالذات لدى أهالي جزيرة "أوكيناوا".

القاعدة العسكرية التي أفلعت منها تلك الطائرة المروحية: اسمها "فوتين ما"، وهي قاعدة ضخمة على مساحة واسعة تشغل تقريباً ثلث مساحة مدينة "غينيووان" الملاصقة لعاصمة الجزيرة "ناها". المشكلة الكبرى أن موقع القاعدة غريب للغاية؛ فهو يقع في منتصف المدينة بشكل مستطيل، بحيث إن من يريد التوجه من أحد أطراف المدينة إلى طرفها الآخر بشكل عرضي عليه أن يدور لمسافة طويلة حول القاعدة في مسار على شكل حرف (U) لكي يصل إلى المكان المقصود.. وأحياناً قد يضطر للدوران دائرة كاملة!

وبالإضافة إلى هذه القاعدة هناك عدة قواعد أمريكية أخرى داخل هذه الجزيرة التي يبلغ طولها حوالي مائة وعشرة كيلومترات وعرضها في المتوسط حوالي عشرة كيلومترات، تشغل ربع المساحة الكلية لهذه الجزيرة تقريباً. كما تحتل أهم المناطق الإستراتيجية بالجزيرة ومقامة على أجود الأراضي الزراعية خصوبة.

يبلغ تعداد العسكريين الأمريكيين بتلك القواعد أكثر من ثلاثين ألفاً بالإضافة إلى عائلاتهم.

إن هذا الوجود الأمريكي العسكري المتميز في تلك الجزيرة الصغيرة "جزيرة أوكيناوا" التي لا يتجاوز تعداد سكانها أكثر من مليون ونصف المليون نسمة، يؤثر تأثيراً نفسياً كبيراً على أهالي الجزيرة، ويجعلهم يعيشون حتى الآن توابع "ما بعد الحرب"، بالرغم من مرور حوالي ستين عاماً على انتهائها، وبالتالي يؤثر في كتابات الأدباء اليابانيين المعاصرين من أبناء هذه الجزيرة سواء بأسلوب مباشرة أو رمزي، وأبرز هؤلاء الكتاب هو الروائي الشاب "ميدوروما شون" الذي تقدمه إلى القارئ العربي من خلال هذه الترجمة.

ونقدم هنا روايتين قصيرتين.. كل منهما تقع في حوالي ستين صفحة، الأولى بعنوان "قطرات الماء (SUTTEKI)، والثانية بعنوان "صوت الريح" (FUON).

وقبل الخوض في تفاصيل هاتين الروايتين، وقبل تقديم صورة عن شخصية هذا الكاتب الشاب المبدع، نود أن نفرّد بضع صفحات في البداية عن الخلفية التاريخية والسياسية والثقافية لجزيرة "أوكيناوا" حتى يتاح للقارئ فرصة لتفهم أكبر لمضمون الروايتين.

قد لا يعرف الكثير من القراء العرب أن جزيرة "أوكيناوا" هذه تتميز بتفردها الثقافي والبيئي والتاريخي ضمن جزر اليابان المتعددة؛ فهذه الجزيرة لم تكن تابعة لليابان إلا خلال القرن التاسع عشر، وكانت قبل ذلك مملكة اسمها "ريووكيوو" .. مملكة صغيرة في عرض المحيط الهادئ، لها صلاتها التجارية بالصين - وخصوصاً جزيرة تايوان - وكذلك باليابان، ولكن ما يجعل المرء يشعر بشكل واضح باقترابها أكثر للصين عن اليابان من الوهلة الأولى هو طبيعة الطعام الرئيسي المميز لتلك الجزيرة، وهو "الختزير"، حيث يدخل في معظم أنواع الأطباق الشهيرة المعروضة بها.

كذلك اللغة التي يتحدثها أهل الجزيرة تختلف كثيراً عن اللغة التي يتحدثها أهل الجزر اليابانية الأم، وإن كانت لها جذور مشتركة مع اللغة اليابانية، فحين يتحدث اثنان من أهل الجزيرة معاً لا يستطيع المستمع إليهما من اليابانيين الأصليين تفسير محتوى الحديث.

وأهل تلك الجزيرة، وإن كانت هويتهم السياسية تابعة لليابان الأم، إلا أنهم يتميزون بقوة شخصيتهم القومية وهويتهم الثقافية المختلفة، ويعتدون ويفخرون بها، ويعتبرون أنفسهم مختلفين عن اليابانيين الآخرين، وكذلك العكس، حيث ينظر إليهم اليابانيون على أنهم مختلفين عنهم، ويعود السبب الأساسي في ذلك الإدراك الواضح بالتباين والاختلاف بالإضافة إلى العوامل المذكورة إلى ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية وتسبب في نشوء جدار نفسي بين الجانبين من الصعب إزالته حتى الآن.

كانت "أو كيناوا" أثناء الحرب تعتبر خط الدفاع الجنوبي الأول لليابان، ولذلك ففي الفترة الأخيرة من الحرب كان هناك بالجزيرة ما يربو على المائة ألف مقاتل من اليابانيين الأصليين الوافدين من الجزر الأم. إن ما نعرفه تماماً نحن العرب عن المأساة التي لحقت باليابان في نهاية الحرب يكاد ينحصر في انفجاري القنبلتين الذريتين فوق رؤوس سكان مدينتي "هيروشيما" و"ناغاساكي" (وليس "ناجازاكي")، مما أودى بحياة عشرات الألوف من مواطني هاتين المدينتين المنكوبتين، وعجل باستسلام اليابان للقوات الأمريكية ووقوعها تحت الاحتلال.

لكن ما لا يعرفه معظمنا أن المعركة البرية الوحيدة التي حدثت على أرض اليابان كانت في جزيرة "أو كيناوا"، وأن عدد الذين أزهقت أرواحهم من عسكريين ومدنيين في تلك المعركة كان أكبر من عدد ضحايا القنبلتين الذريتين.

حيث تبلغ عدد القتلى من العسكريين اليابانيين حوالي ثمانين ألفاً، فيما كان عدد القتلى من المدنيين حوالي مائة وخمسين ألفاً، أي حوالي ربع تعداد سكان الجزيرة وقتها، هذا بالطبع غير عدد الجرحى الذي يفوق هذا الرقم بكثير، مما يوحي ببعد المأساة، حيث كان حوالي نصف تعداد سكان الجزيرة من ضحايا هذه المعركة التي استمرت حوالي شهرين من أبريل 1945 حتى نهاية مايو من العام نفسه. وما سبب الشرخ الكبير بين أهالي الجزيرة وبين اليابان الأم خلال تلك المعركة المأساوية غير المتكافئة أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضحايا قتلوا بنيران الجنود اليابانيين أنفسهم؛ حيث أُجبروا على الاختباء مع الجنود اليابانيين في الكهوف والجحور الطبيعية والاصطناعية، وأجبروا على مصاحبة الجنود اليابانيين في رحلتهم إلى الموت بالانتحار الجماعي، فحين كان الجنود اليابانيون يشعرون بتضييق الخناق عليهم من قبل الجنود الأمريكيين كانوا ينجحون إلى تفجير أنفسهم مع من معهم من المدنيين من أهالي الجزيرة. الأمر الآخر

الذي كان له تأثير كبير في نفوس أهالي الجزيرة أن بعض الجنود اليابانيين كانوا يقومون بقتل مَنْ معهم من المدنيين خوفاً من الوشاية بهم لدى الجنود الأمريكيين، وكذلك كانوا يقومون بإطلاق النار على الأهالي أثناء الحصار داخل الكهوف إذا تحدثوا معاً بلغة الجزيرة غير المفهومة لدى هؤلاء الجنود.

كما أن الدعاية التي قامت بها الحكومة العسكرية اليابانية في تلك الجزيرة كانت تصور للأهالي أن الأمريكيين سوف يقومون باغتصاب النساء اغتصاباً جماعياً، مما جعل الكثيرات من نساء الجزيرة يلجأن إلى الانتحار هرباً من ذلك العار.

وكان من أشهر تلك الأماكن التي شهدت هذه العمليات الانتحارية جرف عال شاهق يطل على البحر اسمه جرف "هيميه يوري" صار مزاراً سياحياً الآن.

وليس هذا كله مجرد نقل عن ألسنة أهالي الجزيرة الباقين على قيد الحياة، فهناك متحف تذكاري أنيق مطلي باللون الأبيض، يقع فوق ربوة تطل على المحيط الهادئ في "أوكيناوا"، معروض به صور فوتوغرافية مكبرة وأفلام تسجيلية على شاشات كبيرة، وكذلك هناك مجسمات كاملة، مثل متحف كبير للشمع، يصور ما كان يحدث داخل تلك الكهوف والمغارات من مشاهد مروعة حزينة، مما يعنى أن أهل "أوكيناوا" لم ينسوا تلك المشاهدة الحزينة حتى الآن... أو بمعنى آخر فهم يتذكرونها.. وهنا فرق في المعنى بين الكلمتين.

لقد اصطلح الأمريكيون على تسمية كارثة معركة "بيرل هاربور" بـ "تذكر بيرل هاربور" (remember pearl harbor) ولم يطلقوا تعبير "لاتنس بيرل هاربور" (don't forget pearl harbor) حينما دكت الطائرات اليابانية ذلك الميناء العسكري الأمريكي، وقتلت ما يزيد على ثلاثة آلاف جندي.. وكذلك هناك متحف كامل فوق البارجة الغارقة "أريزوننا" يذكر دائماً الأمريكيين والسياح بيوم 8 ديسمبر 1941.

ومن هنا كان هناك نوع من التقبل لدى أهالي "أوكيناوا" لحلول الأمريكيان عليهم بديلاً عن الجيش الياباني. ولكن مع استمرار الوجود الأمريكي هناك بدأت المشاعر تتغير شيئاً فشيئاً.

لقد انتهى الاحتلال الأمريكي لليابان الأم رسمياً عام 1952 مع الإبقاء على الوجود العسكري في عدة قواعد كبيرة ببعض المواقع الساحلية الإستراتيجية مثل: قاعدة "يوقوسكا" على خليج "طوكيو"، وقاعدة "إيواكوني" غرب "هيروشيما"، وقاعدة "ناغاساكي" بأقصى الغرب في جزيرة "كيوشو"، وغيرها من القواعد، أما الاحتلال الرسمي لجزيرة "أوكيناوا" فقد ظل مستمراً حتى عام 1971، أي هذا أن الاحتلال الرسمي للجزيرة استمر ستة وعشرين عاماً.

وحتى عام 1971 كان أهالي "أوكيناوا" يسافرون بجوازات سفر إلى الجزر اليابانية الأخرى.

ولكن في ذلك العام تمت إعادة الجزيرة رسمياً إلى الحكومة اليابانية وسط اعتراضات البعض وترحيب البعض وتحفظ البعض الآخر من أهالي الجزيرة.

ومع ذلك فقد ظل الوجود العسكري الأمريكي المكثف في تلك الجزيرة تحديداً وحتى هذا اليوم بما يحمله من استفزاز للمشاعر القومية لأبناء الجزيرة، حيث إن الأراضي التي كلنت معظمها زراعية تم استقطاعها للقواعد الأمريكية مقابل تعويضات بخسة لأصحابها، مع تعطيل وجودها لمشروعات التنمية داخل الجزيرة.

كذلك كانت القواعد الأمريكية الموجودة بتلك الجزيرة نقطة انطلاق للطيران الحربي الأمريكي أثناء حرب كوريا في بداية الخمسينيات من القرن الماضي.. وكذلك أثناء حرب فيتنام؛ لقربها من تلك المناطق.

وفي أثناء حرب الكويت وحرب العراق كانت تلك القواعد مركزاً لتجميع القوات والمركبات العسكرية والذخائر قبل إرسالها إلى مناطق الحرب في الشرق الأوسط، مما جعل لذلك تأثيراً مباشراً على اقتصاد الجزيرة حيث انخفضت نسبة السياح اليابانيين القادمين من الجزر الأم انخفاضاً كبيراً، وتسبب هذا في إفلاس الكثير من شركات السياحة والفنادق وكل من كانوا يعتمدون على دخل السياحة من قريب أو من بعيد.

ولذلك فإن كابوس نكسة الحرب العالمية الثانية وتوابع تلك النكسة لازالت تؤثر بشكل مباشر وواضح على الجزيرة الصغيرة وأبنائها بالذات، خلافاً لما حدث لجزر اليابان الأم، مما جعل أهالي الجزيرة يؤمنون بأن "أوكيناوا" كانت -ولا تزال- تستخدم دائماً ككبش فداء لليابان الأم.

وقد ظهر الكاتب "ميدوروما شون" هو وآخرون من أبناء تلك الجزيرة ليعبروا بأقلامهم عن هذه المشاعر، و"ميدوروما" نفسه لا يقتصر نشاطه بهذا المعنى على كتابة الروايات فقط بل إنه يعتبر "كاريزما" سياسياً لا يترك محفلاً عاماً إلا ويتحدث صراحة عن تلك المشاعر. فقد قال في إحدى كلماته بمحفل عام ما يلي:

"ترى.. هل "أوكيناوا" هي حجر الشطرنج "الضحية" على لوحة "اليابان"؟ وهل وجودها هذا لا يعني بالنسبة لليابان سوى ذلك الحجر الخاسر الذي يتم تحريكه من خلال إستراتيجية تعلم مسبقاً أنه سيتم ضربه بيد الأعداء؟ إن مجال السياحة الذي يعتبر العمود الفقري لسياحة الجزيرة هو في سبيله إلى الانهيار الآن، وما يعجل بانهياره السريع هو الدعاية التي تقول بأن القواعد العسكرية الأمريكية بالجزيرة قد تكون هدفاً مستقبلياً للإرهاب العالمي".

هذا، ويتوقع هذا الكاتب المزيد من الانهيار الاقتصادي والبطالة وبشكل سريع لجزيرة أوكيناوا، مع استمرار الوجود الأمريكي المكثف بها.

لكن اليابان بدورها كانت -بطرق مختلفة، ولا تزال- تحاول التعبير عن مشاعرها بالاعتذار لأهالي الجزيرة عن العبء الثقيل الذي حملوه على كاهلهم طوال الستين عاماً الماضية، وذلك بإنشاء المشروعات الاقتصادية المختلفة، وتخصيص ميزانيات كبيرة للتنمية والتعمير، في الوقت نفسه الذي يشكو فيه أهالي الجزيرة من المثقفين أن معظم ذلك العائد من تلك المشروعات يذهب إلى الشركات المستثمرة في الجزيرة الأم.

إلا أن كاتباً مثل "ميدوروما شون" بالرغم من كتاباته الثورية وجنوحه في بعض الأحيان إلى الانتقاد المباشر للنظام الإمبراطوري، فقد تم منحه جائزة أحسن رواية على مستوى اليابان عام 1997 وهي جائزة "أكو تاغاوا" للرواية، مما دعم محاولات أهل الجزيرة الأم في التقرب من أهالي هذه الجزيرة وعدم إشعارهم بأحاسيس التفرقة. وعلى العكس مازال "ميدوروما شون" يواصل نشاطه الفكري الجريء من خلال كتاباته ونشاطه الاجتماعي داخل الجزيرة.

"ميدوروما شون":

ولد "ميدوروما شون" عام 1960 في جزيرة "أوكيناوا"، وتخرج في كلية القانون والآداب بجامعة "ريووكيو" الحكومية بالجزيرة نفسها، وقد حصل عام 1983 على جائزة تلك الجامعة للقصة القصيرة عن روايته "يوميات أسراب السمك".

وحصل على جائزة "أوكيناوا الجديدة" عام 1986 عن روايته المناهضة للنظام الإمبراطوري "سائراً في شارع اسمه شارع الحرية"، وفي عام 1997 حصل على

جائزة "أكوتاغاوا" للرواية عن روايته "قطرات الماء" التي نقدم ترجمتها هنا، حيث حمل الرقم 117 في سلسلة أعظم كتاب الرواية اليابانيين منذ نشأة هذه الجائزة التي تُمنح مرتين في السنة الواحدة، وحصل على جائزة "كاواباتا ياسوناري" للرواية عن روايته الشهيرة "النفخ في الروح" (MABUIGUMI) عام 2000.

وبعد تخرج هذا الأديب في الجامعة عمل كموظف أمن بإحدى شركات الحراسات الخاصة، ثم صار مدرساً للأدب الياباني بالمدارس الثانوية حتى وقت قريب، حيث استقال من أجل التفرغ لنشاطه الأدبي والاجتماعي والبيئي.

قطرات الماء:

تبدأ رواية "قطرات الماء" بحكاية لفلاح عجوز من أهالي إحدى القرى بجزيرة "أوكيناوا" - واسمه "طوكوشوه" - يستيقظ من نومه بعد الظهر بعد فترة من الاستراحة من عناء العمل المتواصل بالحقل ليكتشف أن ساقه اليمنى قد تورمت فجأة، وبشكل يثير الفزع.. وأحس بأنه عاجز تماماً عن الحركة وعن الكلام، وكتطور سريع للحالة فوجئ بانفورة للماء تتدفق من الإصبع الكبير لقدمه اليمنى، وتظل قطرات الماء تتساقط من إصبعه لعدة أيام متواصلة، وسط حيرة زوجته ومحاولاتها المستميتة للتفكير في وسيلة لعلاج. وفي هذه الأثناء تنتشر تلك الإشاعة في القرية، فيتجمع أبناؤها ويشكلون طوابير طويلة أمام منزله من أجل رؤية ذلك المنظر الغريب. ورغم رقوده وعجزه التام عن الحركة إلا أن ذاكرته كانت نشطة ومنتبهة تماماً.

وفجأة، وفي إحدى الليالي يظهر أمام عينيه عدد من الرجال الذين يرتدون البزات العسكرية الممزقة.. وكلهم من الجرحى.. يقفون في طابور أمام فراشه وهم يتناوبون رشف قطرات الماء المتساقطة من قدمه، ولعق إصبع قدمه المتورم المشجوج.

بعد فترة قصيرة من الوقت تذكر وجوههم جميعاً.. فقد كانوا كلهم من رفاقه في السلاح الذين قُتلوا أثناء الغزو الأمريكي للجزيرة في بداية صيف عام 1945.. وبالذات رفيق طفولته "أيشي مينيه" الذي كان يمثل بالنسبة له كابوساً مزعجاً طوال كل هذه السنين، حيث كان يؤنب نفسه لتركه يموت وحيداً متأثراً بجراحه في ذلك الكهف الذي كان يختبئ فيه مع عدد كبير من أبناء الجزيرة الذين مات معظمهم هناك بسبب القصف المدفعي من الأسطول الأمريكي.

أما ابن عمه "سي يوو" الأكبر منه سناً والعاطل عن العمل فقد استغل ذلك المرض الغريب وصار يعبئ ذلك الماء المتساقط من إصبع ابن عمه في زجاجات ويبيعه لأهل الجزيرة من المرضى بأمراض جلدية وممن أصابهم "الصلع"، على أن الماء هو "ماء المعجزة" الذي يشفي الأمراض الجلدية، ويساعد على نمو الشعر بسرعة كبيرة، ويكسب بذلك مكاسب هائلة في أيام قليلة.

إلا أن مفعول ذلك الماء السحري يختفي بسرعة بمجرد شفاء "طوكوشوه" ليعود على العكس فيصيب من شربه أو مسح به بشرته بتشوهات رهيبية، فينال "سي يوو" علقه ساخنة على يد أبناء الجزيرة من المتضررين على قارعة الطريق.

وعلى الجانب الآخر فقد انتهى ظهور تلك الأشباح من أمام "طوكوشوه" بعد مواجهة بينه وبين "أيشي مينيه" الذي طمأنه بأنه لا يحمل ضغينة تجاهه بعد أن ارتوى ظمأه من الماء الذي لعقه من إصبع قدمه.. وهو الذي مات يعاني من الظمأ بعد أن تركه "طوكوشوه" وحده ونجا بعمره.

نعم فقد كان شبح "أيشي مينيه" لا يزال هائماً على الخط الفاصل بين عالم الأحياء والأموات طوال عشرات السنين التي تلت نهاية الحرب، وهو يعاني من العطش.

وها هو يرحل أخيراً بلا رجعة إلى عالم الأموات بعد أن رواه "طوكوشوه" بساء جسده مكفراً عن ذنبه من خلال ذلك المرض المؤلم ومن خلال تلك الآلام الفظيعة.. أي أن ذلك المرض قد شفع له عند شبح "أيشي مينيه" فتركه لحاله إلى غير رجعة كي يبدأ حياته الطبيعة هادئ البال مرتاحاً. كان هذا رمزاً لنهاية "شبح النكسة" بالنسبة لواحد من أهالي "أوكيناوا" ليغلق بذلك صفحة ذلك التاريخ المؤلم لفترة نهاية الحرب.

صوت الريح :

تناول الرواية حكاية "جمجمة باكية" كان يصدر منها صفير حزين كلما مرت ريح ساحل المحيط الهادئ من خلال فجواتها وتجاويفها.

وكانت هذه الجمجمة لواحد من الطيارين اليابانيين من مجموعات الفرق الانتحارية في العشرين من عمره، لقي حتفه في غارة انتحارية يائسة على البوارج الأمريكية الزاحفة على خلجان جزيرة أوكيناوا في نهايات الحرب.

ويعود بطل القصة "كيوكيتشي" بالذاكرة بطريقة "الFLASH باك" لعشرات السنوات إلى الورا إلى تلك الليلة التي ساعد فيها والده على حمل تلك الجثة التي وجدوها على الساحل عند مصب أحد الأنهار إلى أعلى منتصف جرف وميرطل على الساحل لدفنها في تلك المقبرة القديمة، وسط مخاطرة "كيوكيتشي" بالاحتفاظ بقلم حبر أسود كتذكارة من جثة ذلك الطيار وعلى مدى عشرات السنوات، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه إعادة ذلك القلم إلى صاحبه الأصلي في مرقدته حتى يتخلص من إحساس الشعور بالذنب الذي ظل يؤرقه طوال تلك السنوات، وفي يوم يواكب تلك الأحداث حطّ على القرية الصغيرة مسئول كبير بإحدى محطات تليفزيون طوكيو اسمه "فوجي آي" جاء يطلب من "كيوكيتشي" مساعدته في الوصول إلى مكان تلك الجمجمة الشهيرة التي تصدر ذلك الصفير الحزين لعمل برنامج وثائقي في ذكرى النكسة.

يعترض "كيوكيتشي" في بداية الأمر على معاونته في تلك المهمة على أساس عدم تدينس حرمة تلك الجثة وذلك القبر، لكنه يكتشف بعد ذلك أن "فوجي آي" هذا كان زميلاً لذلك الانتحاري صاحب الجثة في فرقة الطيران الانتحارية نفسها، وأنه كان في حقيقة الأمر يريد تأييد ذكرى صديقه والصلاة عليه ونشر قصته على جميع محطات الإرسال باليابان كنوع من التكفير عن الذنب، ولتهدئة روح ذلك الميت كي ترحل مطمئنة عن هذه الدنيا.. فقد كان هو الآخر يشارك "كيوكيتشي" في نقطة العيش ذاتها في كابوس النكسة.. ولكن من زاوية أخرى، حيث إن الحرب انتهت قبل أن يخرج في مهمة انتحارية لحاقاً بزملائه وذلك بساعات قليلة.. فظل يشعر بتأنيب الضمير لبقائه حياً وحده بينما مات زملاؤه وهم في ريعان شبابهم.

إلا أن تلك الجمجمة تسقط في النهاية من أعلى الجرف وسط ملابسات معينة فتفتت شظايا صغيرة على الصخور قبل أن يتم التصوير وعمل البرنامج، مما يدل على عدم إتمام عملية التأييد وتهدة تلك الروح.. وبالتالي بقاء شبح النكسة لفترة لا يعلم أحد إلى مدى سوف تطول.

وعدا هاتين القصتين اللتين أقدّمهما للقارئ العربي هناك قصص أخرى كتبها هذا الكاتب الروائي بالرمز حول الموضوع نفسه، وهو (آثار النكسة الباقية على أوكيناوا وأهلها) مثل: "النفخ في الروح" و"شجرة أسراب الفراش"، وغيرها من القصص الأخرى.

وقد التقيتُ أنا شخصياً بهذا الكاتب الروائي الشاب الهادئ المتواضع بإحدى غرف الإدارة بجامعة "أوكيناوا الدولية" في شتاء عام 2003، وتحدثت معه لمدة ساعتين حول هاتين الروايتين ومغزاهما وحول نشاطه الأدبي والاجتماعي، واكتشفت خلال تلك المقابلة أنه يقوم بنشاط داخل الجزيرة للدفاع عن قضايا الشرق الأوسط مثل فلسطين والعراق وأفغانستان وأنه متعاطف معها.

وفي ظلّ حادثة سقوط طائرة الهيلوكبتر الأمريكية وما سيسببه من آثار مستقبلية متوقعة في حركة إذكاء الهوية القومية لأهل أوكيناوا.. فإنني أتوقع له أن يلبي بدلوه في تلك الحركة بشكل نشط من خلال أعمال أدبية أخرى سنقدمها عن قريب للقارئ العربي للتعرف على قضية هامة تأخذ تطوراً خطيراً وسريعاً، وتؤكد أن شبّح النكسة "مازال مارداً مختفياً" وليفتح صفحة جديدة في ملف الاحتكاك الياباني الأمريكي الذي يظن الكثيرون انه تم دفنه داخل الأدراج.

د. أحمد فتحي

قطرات الماء

SUITEKI

تورمت الساق اليمنى لـ"طوكوشوه" فجأة حين كان نائماً على فراش بسيط التركيب في الحجرة الخلفية للمنزل هارباً من لفحة شمس الظهر القائل في الفصل المطير منتصف شهر يونيو.

وحيثما تجاوزت الساعة الخامسة بعد الظهر كانت شدة الحرارة قد انكسرت بعض الشيء.. فكان "طوكوشوه" يشعر باستمتاع شديد بالنوم، إلا أن إحساسه بسخونة مفاجئة غير عادية في ساقه اليمنى جعله يفيق. وحين حدق جيداً في ساقه لم يصدق ما رآه.. لقد كانت ساقه من تحت الركبة حتى أخمص القدم متورمة لدرجة أنها كانت تبدو أغلظ من فخذة!

انزعج "طوكوشوه" كثيراً وحاول النهوض بسرعة وهو في حالة من الهلع والانزعاج لكن جسده لم يطاوعه، ولم يستطع حتى أن يصيح طالباً العون. وفي هذه اللحظة شعر بالعرق يسيل على جانبي رقبته.

تخيل في لحظة ما أنه أصيب بنزيف في المخ أو ما شابه ذلك، ولكنه لم يكن يشعر بأي ألم في رأسه أو دوار.. وكان يعي كل ما حوله جيداً. وبينما كان ينظر للسقف وتدور برأسه الأفكار لكي يستوعب الموقف.. كان يشعر في الوقت نفسه بأن ساقه تزداد تورماً شيئاً فشيئاً، وكان جلد ساقه اليمنى مشدوداً لامعاً من فرط التورم، وأحس برغبة شديدة في حك ساقه بأظفاره التي شعر وكأن قطعاً من النمل الصغير يزحف فوقها!

ورغم رغبته الشديدة في حك ساقه إلا أن أطراف أصابعه كانت عاجزة تماماً عن الحركة.

مرت نصف ساعة على هذه الحال والهواجس والمخاوف تجثم على صدره دون أن يستطيع حراكاً.

وهنا جاءت زوجته "أوشي" إلى الغرفة لكي توقظه. ولأن حدة الشمس كانت قد هدأت قليلاً.. كان مجيئها إليه كي تدعوه للخروج معها لاستكمال أعمال الفلاحة بالحقل. كانت ساقه اليمنى التي تورمت في ذلك التوقيت قد صارت مثل قطعة الشمام المتوسطة الحجم وأصبح لونها أخضر مائلاً للبياض، وانفجرت أصابعه المنتفخة لتصير في شكل مروحة مفتوحة وكانت تبدو مثل رؤوس ثعابين مختلفة الأحجام! وشعر بقصبة ساقه مدبية مفرودة متفرقة عن بعضها البعض بسبب ذلك التورم في شكل مزر! وهنا أخذت زوجته تهزه بشدة وهي تمسك كتفيه كي توقظه وهي تصيح قائلة:

"هيا يا رجل.. لقد حان وقت الخروج للعمل.. انهض من رقدتك هذه".

ولكن ما إن أنهت تلك الجملة حتى انزلق رأسه من فوق الوسادة وارتطم بأرضية الفراش بينما كانت الدموع تتهمر من عينيه واللعب يسيل من فمه.

ظنت المرأة حين شاهدته على هذه الحال أنه يتصنع النوم كعادته ويبيدي كسلاً عن القيام للعمل، فعاتت تزجره قائلة:

"هيا يا رجل.. انهض بسرعة!"

ثم مدت يدها ولوت أنفه دون رحمة أو هوادة، لكن لم يكن هناك أي رد فعل من ناحيته. ولما بدأت الزوجة ترتاب في الأمر أخذت

تطالع جسده من رأسه حتى أخمص قدميه، ففوجئت بأن ذلك الذي كانت تحسبه ثمرة كبيرة من ثمار العجور أو الشام، وضعها هنا بعض الجيران ونسيها، لم يكن سوى ساق زوجها التي بدت متورمة بشكل بشع.

شهقت المرأة شهقةً عاليةً وصاحت قائلةً:

"يا للمصيبة.. ماذا حدث لساقك يا رجل؟"

مدت المرأة يدها تتحسس ساقه فوجدتها متكلسةً وبها حرارتها مرتفعة بعض الشيء، رغم ذلك فقد اكتفت المرأة بزجره قائلةً:

"يا لهذا الرجل الكسول.. أياًتي في هذه الأيام العصبية فيصاب بمثل ذلك المرض الغريب".

وصعدت الدماء إلى رأسها واعتراها الغضب حين أدركت في هذه اللحظة أن عليها أن تقوم وحدها بكل العمل هذا اليوم، بدءاً من اقتلاع الأعشاب البرية من الحقل، إلى قطع الأعشاب النضرة من السهول لكي تجهز العلف الخاص بماعرز الجبل. أيقنت "أوشي" في إصرار داخل نفسها أن هذا المرض الغريب الذي ابتلي به زوجها كان ناتجاً عن لهوه ومجونه مع نساء الليل اللاتي يغنين ويعزفن آلة "الشاميسين" الوترية التقليدية ويضربن الطبول، وهنا، ومن فرط حنقها وغيظها، ضربت قصبه ساقه المتورمة بكف يدها بشدة.

كان صدى الضربة يوحى بقوتها وإصابتها للهدف، وفي تلك اللحظة انفتحت ذاتها إصبع قدمه الكبير الذي كان متورماً بالفعل، وفي اللحظة التالية انفجرت نافورة صغيرة من الماء من بين الظفر واللحم!

وعلى إثر ذلك أصيبت "أوشي" بالذعر والاضطراب.. وبحركة تلقائية حملت قدمه تلك وأنزلتها عن الفراش، والتقطت إناءً زجاجياً تستقبل بداخله قطرات الماء التي كانت تتساقط في نقاط متتابعة من كعب قدمه.

أخذ عدد القطرات يتناقص بسرعة، ومع ذلك فقد كان ذلك السائل يتساقط بين وقت وآخر بشكل منقطع.. وكان من الواضح أنها قطرات ماء!

أما "أوشي" التي كانت تتعلق أنظارها بتلك القطرات التي تتقاطر على فترات منقطعة من جزء الجلد المقطوع للإصبع الكبير، فقد اعتراها شعور غامر بحب الفضول والاستتارة، وفي اللحظة التالية غمست طرف إصبعها في الإبريق الزجاجي ثم ذاقت طعم ذلك السائل!

أدركت هنا أن ذلك الطعم يشبه تماماً طعم ذلك السائل المُسكر المذاق ذي اللون الأخضر الفاتح لثمرة الليف!

لم يكن ذلك المذاق مثل مذاق الدم أو العرق أو حتى البول.. لم يكن مثل تلك السوائل التي تدل على وجود مرض ما وتخرج من جسد الإنسان، وبينما كانت تلك الأفكار تدور برأسها دفست قدميها في فخها المطاطي وانطلقت نحو العيادة الطبية لكي تستدعي الطبيب.

انتشرت شائعة قدم "طوكوشوه" في القرية كلها في اليوم التالي. وبحلول الظهر كان هناك طابور طويل من المتطفلين يقف أمام بوابة البيت بدعوى الاطمئنان عليه وزيارته، حتى وصل طول ذلك الطابور إلى خمسين متراً تقريباً!

لم يظهر طابور طويل مثل هذا في القرية منذ ظهور طوابير الأهالي التي جاءت تسعى للحصول على المعونات الغذائية من الجيش الأمريكي بعد انتهاء الحرب مباشرة، ولذلك حتى من لم يكن له اهتمام بالأمر من أهل القرية، لم يستطع أن يمنع نفسه من الحضور لاستطلاع الأمر والاشتراك في ذلك الطابور.

في البداية خرجت "أوشي" للناس تحييمهم وتشكرهم على حضورهم وهي تقدم لهم الشاي الياباني الأخضر وقطع الحلوى، ولما نفذت الحلوى اضطرت للخروج لشراء قطع الآيس كريم لهم.

بعد ذلك ببضع دقائق ظهرت "أوشي" وهي تستشيط غضباً وتمسك في يدها ببلمة تلوح بها في الهواء وهي تصيح قائلة:

"اللعة.. هل صار زوجي "طوكوشوه" فرجة تتسلون بها؟"
وراحت تقذفهم بالسباب قائلة:

"إنكم لا تعدون أن تكونوا ثلّة من العاطلين المقاطيع.. اغربوا عن وجهنا".

لم يأخذ أهل القرية المجتمعون هنا تهديدها على محمل التهويش فقط، فقد كانوا يعلمون تماماً مدى احتياج "أوشي" إلى زوجها واعتمادها عليه، وأدركوا إمكانية قيامها بفعل طائش والهجوم عليهم ببلمتها تلك، فانتشروا في لحظات يفرون هنا وهناك طالبين النجدة والنجاة بحياتهم!

عندما دخلت "أوشي" إلى البيت واختفت من أمام الناس، بدأت تجمعات أخرى من أهل القرية تتكون تحت ظلال الأشجار الوارفة أمام الجمعية التعاونية، وتحت تودة قصر ثقافة القرية، وحول المقاعد

الخشبية التي تظلها فروع الأشجار أمام ساحة لعبة الـ"جيت بول"، وذلك بطريقة تلقائية غير منظمة أو موجهة، وبدأت الأحاديث تدور والثرثرة خصوصاً مع الذين تجمعوا للدخول إلى البيت ورؤية تلك القدم المتورمة.

دارت الثرثرة حول شكل قدمه ولونها ورائحتها، وعن الجزء المتصلب الجاف منها والجزء الطري، وعن حال أظفاره التي تحور شكلها وتبدل، وعن ظاهرة مرض التورم الجزئي الذي انتشر بالقرية منذ سنين مضت، وغيرها من الأمور، وكان من الناس من وصف ذلك بأنه فأل نحس، ومنهم من قال إنه فأل حسن مبشر، ومنهم من تطوع بالقول بأن بتشخيص ذلك المرض وتوقعه أن يستمر ذلك التورم لفترة كذا.. وهنا بدأ الناس يراهنون بعضهم البعض بخصوص تلك التوقعات.

ومع اتساع محور الحديث تحول الكلام عن النتائج الاقتصادية المتوقعة لميزانية القرية من وجود هذه الظاهرة الغريبة، حتى دارت أقذاح الخمر بين دوائر المجتمعين وذلك مع حلول الغروب.

ولم يمر وقت طويل حتى أخذت جنبات القرية تصدح بأصوات الغناء الفردي والجماعي وبأصوات عزف آلة "الشاميسين" الوترية التقليدية.. وتطور الأمر إلى بدء حلقات للرقص التقليدي الجماعي على تلك النغمات مع تصفيق الجميع لضبط الإيقاع. ووصل الأمر في النهاية إلى استغلال تلك التجمعات للقيام بالدعاية الانتخابية لانتخابات المجلس المحلي للقرية والتي كانت على الأبواب، فقام أحد المرشحين بذبح بعض الماعز الجبلية وتوزيع لحمها على الحضور، وأرسل ابنه لشراء الخمر من أجل الجميع!

لقد صار الجميع يقشرون ثمار المانجو والأناناس وهي الثمار التي كانت رائدةً بالسوق ولا تجد من يقبل عليها ويشتريها، واختلطت تلك الروائح العبقة المسكرة برائحة لحم السمك المقلب ورائحة شرائح سمك الحبار، وأخذ الأطفال يستمتعون بطرقة أصوات أعواد الغاب وهم يكسرونها لإعداد الوقود، أما النسوة فكان وهج النار الموقدة لسلق القدر الكبير لحساء لحم الماعز يضيء وجوههن.. وانطلق الشباب نحو شاطئ البحر يتأرجحون هناك مع أمواج المد، أما كلاب القرية فكانت تذرع الشوارع والطرقات عدواً ورمحاً هنا وهناك وهي تقبض بفكاكها على عظام ضلوع الخنازير!

أما "أوشي" الغاضبة فقد كانت تراقب تلك المشاهد من نافذتها وهي تلوح بقبضة يدها مهددة متوعدة وهي تقول:

"يا لكم من حمقى ملاعين لا تراعون خوف وأحزانهم الناس"

وبعد ذلك عادت "أوشي" حيث يرقد زوجها بلا حراك، وقامت بتغيير الثلج الذي كانت ترطب به ساقه المتورمة.

أخذت المرأة تنعي حظها وتتألم لحالها، لأنها كانت لا تترك مناسبة دينية بالقرية إلا وتشارك فيها، ولم تتخلف مرة واحدة عن تقديم القرابين لأرواح آلهة القرية وأجدادها إرضاء لها، فصارت تتمم قائلة:

"ماذا أيتها الآلهة تتخلين عني وتصيبيني بهذا الضرر الذي لا يرضي عدواً أو حبيباً؟".

أما زوجها "طوكوشوه" فقد كان نبضه طبيعياً ولم تكن به سوى حمى طفيفة، وكان ينام هناك بوجه راضٍ ويصدر شخيراً خفيفاً ينم عن استمتاعه بالنوم. كانت قدمه اليمنى قد انتفخت لتصير في حجم قطعة كبيرة من العجور، وشعرت المرأة هنا برغبة ملحة في أن

تجرب وتقطع قطعاً في ساقه المتورمة لعل السوائل كلها تخرج منها، ولكنها حين فكرت في الغيبوبة الواقع فيها زوجها شعرت بخوف وقلق مفاجئين من الإقدام على هذه المغامرة، رغم أنها كانت معروفة بجسارتها وشجاعتها.. خصوصاً وأن عيون أهل القرية كلهم كانت مركزة عليها وتتابعها.

كانت قطرات الماء المنبتقة من فتحة مقدمة إصبع قدمه تقطر بشكل منتظم بمعدل قطرة واحدة كل ثانيتين، وكانت "أوشي" مشغولة طوال الوقت بتغيير الجرادل التي وضعتها تحت قدمه من تحت الفراش لجمع الماء المتساقط منه، وكانت تقذف ذلك الماء بين وقت وآخر فوق تربة الحديقة الخلفية للمنزل.

كان طبيب عيادة القرية يدعي "أوشيرو"، وكان في منتصف العقد الرابع من عمره، نحيلاً، حلو الكلام، لطيفاً في التعامل خصوصاً مع المسنين والمسنات من أهل القرية.. ولهذا السبب كانت له شعبية كبيرة.

جلس الدكتور "أوشيرو" هناك بجانب الفراش يقيس ضغط "طوكوشوه"، بينما لم يستطع إخفاء تعبيرات القلق والاضطراب عن وجهه، وقام بأخذ عينات من دمه وكشف عليه بالسماعة الطبية، لكنه في النهاية لم يستطع أن يشخص هذا المرض أو يضع تفسيراً لتلك الظاهرة.

بعد ذلك قام بإسداء النصح إلى الزوجة "أوشي" بأن تدخل زوجها مستشفى الجامعة الموجود بالمدينة القريبة من القرية لكي يوضع تحت الفحص المركز، لكنها حين سمعت ذلك ردت عليه صائحة بشكل تلقائي:

"هذا لن يكون".

لقد كانت "أوشي" تصدق كلام رفاقها من المسنين الذين يلعبون معها لعبة الـ "جيت بول" والذين حذروها قائلين:

"إذا كان الأمر بشأن المستشفى الجامعي.. فالداخل هناك مفقود والخارج منها مولود".

ولذلك فلم تفلح محاولات الطبيب في إقناعها بالمرّة.

وبينما كان الدكتور "أوشيرو" يضع زجاجة صغيرة جمع بها قطرات الماء المتساقطة من كعب "طوكوشوه" في حقيبته الطبية.. كرر على المرأة نصيحته بأن تصطحب زوجها في اليوم التالي إلى مستشفى الجامعة لإجراء فحوص مركزة، ووعدها بأن يمر بصفة منتظمة للاطمئنان على حاله.. ثم غادر المكان عائداً إلى العيادة.

عاش "طوكوشوه" مع زوجته "أوشي" زهاء أربعين عاماً دون أن يبرزقا بأطفال وحدهما وهما يقومان بأعمال الفلاحة، وخلال تلك المدة الطويلة لم يشعر أي منهما بأن شيئاً ما ينقصه.

حين تأكدت "أوشي" من الطبيب أن حالة زوجها لا تشكل خطورة على حياته، أو على الأصح حين أفنعت نفسها بذلك، قررت إبقاءه معها في البيت تحت ملاحظتها لفترة ما، وذهبت مرة أخرى إلى غرفة المخزن لكي تحضر البلطة استعداداً لطرد هؤلاء المتطفلين الذين أثاروا الصخب والبلبلّة في القرية.

ومنذ اليوم التالي صار الدكتور "أوشيرو" يعود "طوكوشوه" بمعدل مرتين يومياً لمتابعة حالته. وتخللت تلك الزيارات المنزلية حضور إحدى الممرضات بين وقت وآخر لتغيير زجاجة الجلوكوز ولكي تساعد "أوشي" في تغيير ملابس زوجها، ولهذا السبب فقد استطاعت "أوشي" أن تجد فترات من الوقت - وإن كانت قصيرة- للذهاب إلى الحقل للاطمئنان على الأمور هناك.

وفي عصر اليوم الرابع لتورم ساق "طوكوشوه" جاء الدكتور "أوشيروه" ليبلغ "أوشي" بأن نتيجة الفحوصات التي كان قد طلب من أحد أصدقائه بالمستشفى الجامعي القيام بها قد ظهرت. جلس الدكتور "أوشيروه" عند الشرفة الخارجية وصار يزدرد قطع الفجل المنقوعة في السكر الأسود والتي قدمتها له "أوشي" بينما كان يعرض عليها ذلك التقرير الطبي المفصل بالبيانات والأرقام.

قال لها الطبيب:

"الخلاصة أن ذلك السائل لا يعدو أن يكون بعض الماء وإن كان به نسبة مرتفعة من ذرات الرمال".

وهنا سألته "أوشي" عن سبب تدفق ذلك الماء من طرف إصبعه، فرد عليها قائلاً:

"حسن .. إنه أمر لا أستطيع أن أضع له أي تفسير".

وبالرغم من أن الطبيب كان يرسم ابتسامة على وجهه وهو يجيبها، إلا أن "أوشي" لم تقتنع بذلك ولسان حالها يقول:

"كيف تمارس مهنتك كطبيب وأنت لا تعترف تفسيراً لهذه الأعراض؟"، لقد كانت تود مهاجمته ومعاتبته.. إلا أنها تحاملت على نفسها وقالت له:

"لا يهمني أن تعرف السبب.. لكن الأهم أن تجد وسيلة تمنع بها سيلان ذلك الماء بأسرع وقت ممكن".

عاد الدكتور "أوشيروه" ليكرر على مسامعها ما نصح به من قبل؛ حيث كان يصر على نقله إلى المستشفى الجامعي، وأنه لا بديل عن ذلك. ولما كانت "أوشي" قد سمعت من بعض عجائز القرية في

الباص السياحي أثناء جولتها معهم لمشاهدة آثار الحرب في رحلة تابعة لجمعية المسنين، أن العجائز يتحولون إلى فئران للتجارب في ذلك المستشفى، فإنها لم تحتمل الصمت، وأخذت تهمهم وهي تلمم الأطباق الفارغة من أمامه قائلة:

"اللجنة.. إنك لا تتفع ولا حتى بقطعة من البراز".

والتقط الطبيب تلك الجملة اللاذعة.. فصاح منزعجاً:
"ماذا تقولين؟".

لكن "أوشي" تحايلت عليه بابتسامة مصطنعة وشكرته على جهوده. بينما كانت في سريرتها قد قررت الاعتماد على نفسها في معالجة زوجها.

كانت "أوشي" تظن في بداية الأمر أن زوجها أصيب بمرض "الفيلايريا"؛ ففي طفولتها كانت قد رأت بعض أهل القرية يجرون أقدامهم التي شابته جذوع أشجار الصنوبر جراً، ورأت بعض الرجال الذين تدلت خصيهم المنفخة البارزة من سراويلهم وكأنهم مثل خنازير التلقيح. ومن بين هؤلاء جميعاً كان أكثرهم شهرة ذلك العجوز الذي يلف القرى والنجوع على دراجته يقوم بإصلاح الأشياء المعطوبة. لقد كانت خصيتاه المنفختان تشبهان ثمار العجور المفطوح.. حيث كانتا متصلبتين مثل الحجر، وكان حين يجلس على الأرض يظهر مهارته في إصلاح القدور والأواني والمظلات المكسورة.. وكذلك يقوم بسن السكاكين والآلات الحادة، وكان أطفال القرية يتجمعون حوله للاستمتاع برؤية شكله الغريب بينما يبرع في أداء عمله بمهارة فائقة.

وحين كان ذلك العجوز ينتهي من العمل كان يقوم بحمل أدواته وحمل خصيته الضخمة تلك فوق الدراجة ليتجه إلى القرية المجاورة.

كانت "أوشي" تسترجع في ذهنها شكله من الخلف وهو يمضي مبتعداً بجسده الضئيل ومرتبداً ثيابه الممزقة، ثم تترحم على ذكريات تلك الأيام الخوالي.

كانت "أوشي" تربط بين حال ذلك العجوز وحال زوجها الذي تورمت ساقاه مع تورم خصيتيه، وتشعر بالقلق يتملكها، لكنها عادت لتطمئن نفسها أن ورم زوجها لم يكن أبداً بتلك الفظاعة.

لم يكن زوجها أصلاً مشعراً بشكل ظاهر.. فقد كان شعر جسده خفيفاً قصيراً، لكنه بعد أن تورمت ساقاه سقطت حتى تلك الشعيرات القصيرة، ولم تعد هناك سوى شعيرات لا تكاد تلمح بالعين المجردة، بينما تحول لون جلد ساقيه إلى لون أخضر غامق، وكان شكل ساقيه يكاد يقترب من شكل ثمرة القرع الكبيرة لولا تورم أصابع قدميه بهذا الشكل الذي يشابه شكل رؤوس ثعابين الحنش المنتشرة بـ"أوكيناوا"، وكانت قدماه لا تزالان تفرزان قطرات الماء تلك بنفس الانتظام دون توقف.

جاء رفاق الطبيب الثلاثة إلى المنزل للقيام بفحص ذلك الماء مرة أخرى، لكن "أوشي" لم تسمح لهم بالمرور من عتبة البيت وطردتهم شر طردة.

ومع ذلك فلم يظهر على وجه الدكتور "أوشيروه" أي علامات للامتعاض وهو يزور "طوكشوه" للاطمئنان على حالته. وفي المقابل لم تكن "أوشي" تفتح فمها بكلمة.. بل إنها على العكس كانت تزيد من كمية الفجل المنقوع في السكر الأسود عن ذي قبل.

وهكذا مرت الأيام تبعاً وحالة "طوكوشوه" مستقرة كما هي.. فنبضاته كانت منتظمة، ولم يعد يعاني من الحمى، وكان ينام مستغرقاً طوال الوقت دون أن يكون شخيرِه عالياً بشكل ملحوظ.

ومع استقرار تلك الحالة صارت "أوشي" تطيل من فترات خروجها إلى الحقل، وكانت أثناء الليل تجهز دلواً كبيراً مقارنة بالدلو الذي كانت تضعه أثناء النهار تحت فراش زوجها، وصارت تنام في غرفتها دون حاجة لملازمة زوجها.

منذ تلك الليلة كان الجنود يقفون بجوار فراش "طوكوشوه"، ورغم استمرار "طوكوشوه" في رقدته بالفراش إلا أنه كان يدرى بما يدور من حوله، إذ يكن غائباً تماماً عن الوعي حتى وإن كان يبدو كذلك في عيون الآخرين، وكان منتبهاً للحوار الذي يدور بين زوجته والطبيب، لكنه لم يكن قادراً على الكلام، ولم يكن بمقدوره أن يوجه التعليمات لزوجته بيديه أو رأسه أو حتى بنظراته.

وشعر بالحزن على نفسه حين خامره شعور بأنه كاد يصير مشلولاً نصفياً وأن عقله كاد يصاب بالبله، لكنه في الوقت نفسه كان يحاول أن يحتفظ برباطة جأشه، وأن يكون متفائلاً بتمائله للشفاء ولو بعد حين، وكان يشغل وقته بالتفكير في كتابة خطاب للاعتذار لهؤلاء النسوة اللاتي كان يظن أنهن غاضبات منه لغيبابه عن زيارتهن.

وفي أحد الأيام حين غابت زوجته "أوشي" عن الغرفة بعض الوقت تفتحت عيناه في تناقل بسبب شعوره برغبة في حك أطراف أصابع قدمه اليمنى بينما كان يرقد مبتلاً تماماً من السوائل التي تتضح منه، وفي تلك اللحظة شعر بصعوبة في فتح عينيه بسبب الضوء

الباهر للمصباح الفلورسنتي الذي كان مضاءً ليل نهار دون أن يطفأ.
لكنه في نهاية الأمر استطاع بالكاد أن يفتح عينيه وأن يحرك رقبتيه
يميناً ويساراً، واستطاع أخيراً أن يخرج زفرة تتم عن شعوره بالألم
فعلا صوته صارخاً:
"آه".

وبعدها أخذ يهتف باسم زوجته "أوشي" لكن صوته لم يكن كافياً
ليصل إلى الغرفة المجاورة. ومع ذلك لم يستطع أن يكبح شعوره
بالسرور لأنه أفاق من غيبوبته، فأخذ يلف رأسه ويدور بعينه في
أرجاء الغرفة.. ولكنه في هذه اللحظة أدرك وجود عدد من الرجال
هناك يقفون ملتفين حول فراشه.

كان هؤلاء الرجال الذين يرتدون زياً عسكرياً مهترئاً مبتلاً..
وكانهم غارقون في ما يشبه ماء البول.. كانوا مطرقي الرؤوس وكانهم
مهمومون بشيء ما يشغل تفكيرهم، يحدقون جميعاً في قدميه. وحين
رفع "طوكوشوه" رأسه ليستطلع الأمر رأى جندياً آخر يجلس القرفصاء
على الأرض. وكان ذلك الرجل الذي يلف عصابة حول رأسه الحليق
الذي لفحته الشمس يمسك بكلتا يديه مفصل قدم "طوكوشوه"، وكان
ويتلقى بغمه المفتوح قطرات الماء التي تتساقط من كعبه. وكان يسمع
بوضوح صوت حلق ذلك الرجل وهو يبتلع الماء. كان ذلك يحدث
بينما كان الرجال الواقفون هناك يزدردون لعابهم.

كان إجمالي عددهم خمسة رجال، ومن بين الواقفين الأربعة كان
هناك اثنان منهم يضعان على رأسيهما الخوذات الحديدية، بينما
الآخران يبدوان برأسيهما الحليقين المحترقين بأشعة الشمس، ويلفان

الأربطة الطبية حول رأسيهما. أما الرجل الذي يقف قريباً تماماً منه فيربط جبيرة خشبية حول ذراعه اليمنى، فيما كان الرجل الذي يقف خلفه يتكئ على عكاز.. وكانت هناك ساق مفقودة من أسفل الركبة. وأما الرجل الثالث فقد كان صبيّاً لا يتجاوز سنه الخامسة عشرة. نصف وجهه الأيمن أسود منتفخاً، وبأعلى صدره العاري أثر غائر مائل لثلاثة جروح كبيرة، وحول فتحات الجروح كانت هناك كتل متجمدة من الدم الذي استحال لونه إلى لون ثمار التوت البنفسجية.

وأما الرجل الرابع فقد كان يبدو من ملامح وجهه المتناسق أنه جندي قادم من اليابان الأم وليس من أبناء جزيرة "أوكتيناوا"، ومن النظرة الأولى لم يكن يبدو عليه أي جرح ظاهر، ولكن حين صوّب "طوكوشوه" نظره إلى طرف ياقته لاحظ وجود جرح قطعي ظاهر يغطي نصف رقبتة من الخلف.

وأما الرجل الخامس الجالس القرفصاء، والذي كان يبتلع قطرات الماء المتساقطة من كعب "طوكوشوه"، فقد بدأ على حين فجأة في لعق ذلك الكعب.

التوى وجه "طوكوشوه" من الرعب والإحساس بالدغدغة، ولكي يغالب شعوره بفقد صوابه بدأ يندندن بأغنية شعبية من أغنيات راقصات القرية التي كانت تؤدي في مواسم الحصاد.

بعد مرور بعض الوقت ما انتفض ذلك الرجل الذي كان يلعق كعبه واقفاً على قدميه، ثم على الفور جلس الرجل التالي القرفصاء تحت الفراش ليبدأ هو الآخر في ابتلاع قطرات الماء المتساقطة من كعب قدم "طوكوشوه".

عندما انتهى ذلك الرجل من القيام بنوبته في رشف الماء انفض
واقفاً وعينه لا تتحول عن كعب قدم "طوكوشوه" وكأنه نادم على
التوقف عن الرشف واللعق، لكنه اعتدل في وقفته أمام "طوكوشوه"
وأدى له التحية العسكرية منحنيًا برأسه.. ثم اتجه ناحية اليمين ليختفي
تدريجياً خلال حائط الغرفة.

في نفس التوقيت تقريباً ظهر جندي آخر جديد يدلف من خلال
الحائط إلى الجهة اليسرى من "طوكوشوه"، ووقف في آخر الطابور
ليأخذ دوره.

ذلك الجندي الذي ظهر الآن يجول بعيونه الحائرة المتسائلة في
أركان الغرفة، وحينما التقت عيناه بعيني "طوكوشوه" الراقد هناك رسم
على وجهه المشعر ابتسامة وأوماً برأسه إيماءة خفيفة تحية له.

لقد أدرك "طوكوشوه" في هذه اللحظة أن وجه ذلك الجندي الذي
يواجهه الأربعين من عمره لم يكن غريباً عنه.. فقد كانت ملامحه مألوفاً
لديه. لكنه فشل في أن يتذكر متى وأين التقى به من قبل.

على حين فجأة أصدر ذلك الجندي الشاب أنيناً عالياً ، وكان يربط
عصابة طبية حول رأسه، وبعدها بلحظات أخذ يمسح بيده على صدره
عند فتحة الجرح في عصبية وكأنه يزيح عنه شيئاً ما، وهنا تساقطت
من فتحة الجرح ديدان كبيرة الحجم تناثرت فوق أرضية الغرفة. ثم
أخذت تلك الديدان العاجية اللون تتحرك في نشاط وحيوية كي تتسلق
الفراش. وهنا أصدر "طوكوشوه" بالكاد صرخة ضعيفة مبحوحة من
هول الفرع والمفاجأة، ولكن بعد أن تقدمت تلك الديدان زاحفة لمسافة

ثلاثين سنتيمتراً تقريباً تحولَ لونها فجأةً إلى اللون الأسود ثم تلاشت واختفت.

لم يمر وقت طويل حتى انتهى الجندي الثاني من ابتلاع قطرات الماء، ثم أدى التحية كالمعتاد لـ"طوكوشوه" ومال برأسه إلى الأمام إلى أقصى زاوية إمعاناً في الشكر والامتنان، ثم تحرك ليختفي هو الآخر من خلال الجدار الذي يقع إلى يمين "طوكوشوه".

ولم يلبث أن ظهر هناك من الحائط الأيسر جندي جديد أخذ مكانه في الطابور.

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى اقترب الفجر.

كان الجنود كلهم صامتين يلتزمون بالهدوء والسكينة ورباطة الجأش، كان يبدو جلياً أن إحساسهم في بداية الأمر بتوقع الغدر منهم من ناحية "طوكوشوه" قد زال تماماً.

كانوا كلهم متخنين بجراح عميقة.. وبالكد يستطيعون الوقوف على أقدامهم، وكان "طوكوشوه" يراقب حالهم هذا المبالغ في بؤسه وتعاسته.. ويرى تتابعهم في أداء التحية له، وانحناءهم أمامه في خشوع، واختفاءهم من خلال حائط الغرفة.

وإزاء هذا وذاك صار "طوكوشوه" يشعر ناحيتهم بالشفقة والعطف بعد أن كان خائفاً مرعوباً منهم في بداية الأمر.

كان منهم من فقد قدرته على الإبصار، وكان هناك آخر لا يزيد عمره على عشرين عاماً مصاباً بجرح قطعي كبير في منتصف رقبتة حتى عظمة ترقوته، وكان ذلك الجرح من العمق والخطورة بحيث إنه مع كل زفرة يزرها كانت فقاعات الدم تتدفق من داخل حنجرته.

حتى ذلك الجندي المصاب بذلك الجرح الجسيم كان حريصاً على
رشف الماء المتساقط بكل جد وتركيز، وبعد أن بدأ "طوكوشوه" يتابع
عقارب الساعة المعلقة على الحائط، أدرك أن كل واحد من هؤلاء
الجنود كان يقوم بنوبة ابتلاع ورشف قطرات الماء لمدة دقيقتين قبل
أن يترك الدور لزميله التالي. لقد أدرك "طوكوشوه" أن دقيقتين فقط من
الزمن لرشف قطرات من الماء لم تكن كافية لري الظم الذي كان يبدو
واضحاً جلياً أنهم يعانون منه، وربما كان هذا ما يفسر نظرة الحسرة
وعدم الرضاء تلك التي كانت ترسم في عيون كل منهم وهو ينهض
ليغادر الغرفة مغلوباً على أمره بينما يرمق كعب قدم "طوكوشوه" الذي
يقطر منه الماء. وبين الحين والحين كان بعضهم يلجأ إلى لعق كعب
القدم بلسانه أو إلى مص أصابع قدم "طوكوشوه" مصاً وكان معدل
سقوط القطرات في تلك الأثناء أقل من المعتاد. بل إنه كان يحدث
كثيراً أن يضطر بعضهم إلى إخلاء مكانه لزميله التالي بسبب استعجال
ذلك الزميل المنتظر لدوره وذلك قبل أن تمر دقيقتان كاملتان، وحين
يقوم أحد منهم بلعق الكعب أو مص إصبع القدم.. يغمض "طوكوشوه"
عينيه وهو يغالب الشعور بالرغبة في الحك. ومع ذلك فمع تكرار ذلك
السلوك منهم صار "طوكوشوه" يعتاد هذا الشعور، فكان يدخل في
إغفاءات قصيرة بين وقت وآخر.

بحلول الساعة الخامسة فجراً على وجه التقريب لم يعد يظهر
هناك من الحائط الأيسر جندي جديد بدلاً عن ذلك الجندي الذي يختفي
خلال الحائط الأيمن. وحين بدأت الزرقة تلوح في السماء وينبلج

الصباح.. كان آخر جندي بقي في الغرفة قد انتهى من دوره في رشف قطرات الماء، وأخذ يتكئ على عكازه مترنحاً ليختفي تدريجياً خلال الحائط.

هز "طوكوشوه" رأسه الخامل وهو يكاد يغيب عن الوعي، ثم رمق ساقه اليمنى بعينيه. لقد بدا واضحاً أن التورم الذي اعتري ساقه قد زال، وأن الماء قد توقف عن السيلان، وهنا صحا "طوكوشوه" من غفوته وأفاق، وأحس أن صوته قد عاد إلى قوته وانطلاقه، وشعر بالرغبة الآن في الضحك بصوت عال.

في اللحظة التي استجمع فيها كامل قواه لكي ينهض عن الفراش.. شعر بألم رهيب يسري من أطراف أظافره خلال ساقه كلها. وفي اللحظة التالية اندفعت المياه تتدفق من طرف إصبع قدمه الكبير كالنافورة.. فأصيب "طوكوشوه" بالإغماء من فرط الصدمة، بينما كان فمه مفتوحاً عن آخره.

كانت ساقه تلك التي أوشكت على العودة إلى حجمها الطبيعي قد عادت لتتنفخ مرة أخرى مثلما كانت قبل الظهر بقليل.

كانت "أوشي" قد استنفدت كل الوسائل في محاولة علاج زوجها، وبعد أن غلب عليها أمرها ذهبت لتزور أكبر سيدة طاعنة في السن في القرية كلها، وسألته عن طريقة لعلاج آلام السيقان، وجربت كل ما نصحتها به تلك العجوز الشمطاء من حيل ووصفات.

فقامت بتجربة منقوع أسماك "بساريا الحقل" مع الديدان، وسقته عصارة نوع من الأعشاب البرية ينمو فوق صخور ساحل البحر يقال

عنها إنه لو قامت فراشة من الفراشات المشرفة على الموت بلعقها لطارت من فورها تمتلئ نشاطاً وحيوية، كما طلبت من بعض الجيران السعي في سبيل العثور على ترسة البحر حيث قيل لها إن أكل لحمها يعين على الشفاء من ذلك المرض. وجربت الأعشاب الطبية المعروفة بشدة مفعولها من شفاء أي مرض.. وجربت الكي بالبخور حتى إنها جربت أن ترشف بغمها دم زوجها الفاسد بعد شق قدمه.

كانت "أوشي" تشعر بقلق شديد من أن تتفجر الدماء أو المياه من ساقه المتورمة والتي كان جلدها لامعاً منزلقاً بمجرد أن تغرس فيها نصل الموسيقى، لكنها حين غرست سنه فيها سألت كرات دم حمراء نقية تأكدت من صفاتها ونقاها بعد أن ملأت بها كوباً.. فاطمأنت وتتفست الصعداء حيث كان ذلك عدم يعني وجود ثلوث ما. أجل.. لقد اطمأنت إلى عدم وجود دم فاسد هناك.. لكنها كانت لا تزال تشعر بالقلق لعدم تغير حال ساقه عما سبق.

ولما ضاقت بها الحيل اضطرت للتفرغ للصلاة إلى الإله "يوتا"، وهو من أشهر آلهة الجزيرة، عملاً بنصيحة بعض النسوة الطاعنات في السن، رغم أن واحدة من هؤلاء النسوة أخذت منها مبلغاً فادحاً من المال لكي تقيم من أجلها الشعائر وأعمال السحر زلفى لذلك الإله المبروك.. إلا أن ذلك لم ينفع بشيء، فعادت تلك المرأة الشمطاء لتهاجمها وتؤنبها مدعية أن عدم حرصها على الصلاة والدعاء للآلهة والأجداد وقلة إيمانها وورعها كانا السبب في فشل المحاولة. صدقت "أوشي" ما قالته لها المرأة الشمطاء المشعوذة وأخذت تتعي حظها وقلة حيلتها ونكرانها وقلة إيمانها بآلهة الجزيرة، وجلست بجانب زوجها

تدعك ساقه براحتها وتعي حالها قائلة:

"يا لضعفي وقلة حيلتي وعجزي عن شفائك.. يا للوعتي عليك يا
عزيزي "طوكوشوه".

حين سمع الرجل كلماتها شعر في تلك اللحظة بأن صدره قد
داهمته السخونة وأصيب بالحمى.

منذ ذلك اليوم صار نفس الجنود يزورون "طوكوشوه" بصفة
منتظمة. حين تدق ساعة الحائط الثانية عشرة ليلاً، تقوم "أوشي" بتغيير
الدلو كعادتها ثم تترك زوجها لتتوجه إلى غرفتها لتنام، بعدها بدقائق
قليلة كان هؤلاء الجنود يظهرون تبعاً من خلال الجدار الأيسر
للغرفة. وحين تدب تلك الحركة في الغرفة كان "طوكوشوه" يشعر
بالحيوية والنشاط في رأسه وعينيه على الفور، وباستثناء اللحظات التي
كان خلالها الجنود يقومون بأداء أمامه لتبديل نوبة رشف قطرات
الماء، لم يكونوا ينظرون إلى وجهه أبداً، عدا تلك اللحظات القصيرة،
فقد كانوا جميعهم يحدقون ملياً في أصابعه بينما يقفون بالكاد وهم
يعانون الإعياء من جراء جراهم البالغة.

أدرك "طوكوشوه" منذ الوهلة الأولى أنهم جميعاً من جنود الجيش
الياباني المصابين بجراح خطيرة، وكان ثمانون بالمائة منهم من جنود
اليابان الأم وليسوا من جزيرة "أوكيناوا".

كانت أعمارهم متفاوتة، وكان من بينهم شيوخ استعلت رؤوسهم
شيباً، يبدو عليهم أنهم من أبناء جزيرة "أوكيناوا" الذين تم تجنيدهم
كقوات للدفاع عن الجزيرة في أواخر الحرب. كان الحوار بينهم شبه

منعدم، وكانوا جميعاً يقفون صامتين في انتظار دورهم. وكان منهم من يترنح ويوشك على السقوط منهم فيسنده زميله الواقف خلفه أو الواقف أمامه.

شعر "طوكوشوه" بالعناء والتعب من فرط الشفقة عليهم وهو ينظر إلى حالهم، فلجأ في النهاية إلى إغلاق عينيه وتمنى في قرارة نفسه أن يخلد إلى نوم عميق.

وجاء اليوم الثالث منذ أن بدأ ظهور هؤلاء الجنود في هذه الغرفة، وبالتحديد عندما أوشكت تلك الليلة أن تنقضي.

أفاق "طوكوشوه" من إغفاءة خفيفة.. وبينما كان يراقب بعينين واهنتين جندياً منهم وهو يذلف منصرفاً من خلال جدار الغرفة.. إذا بصرخة تفلت من حنجرته رغماً عنه حين لمح وجه ذلك الجندي الذي ينظر في انكسار إلى الأرض وهو يدخل من خلال الجدار المقابل.

صرخ ناطقاً باسم ذلك الجندي:

"إيشي مينيه!"

أجل.. كان "إيشي مينيه" يقف هناك أمام عينيه، ذلك الشاب الصغير الذي دخل معه إلى المدرسة النموذجية بمنطقة "شوري" بالجزيرة دوناً عن شباب الجزيرة كلهم، والذي كان ملازماً له أثناء معركة الدفاع عن الجزيرة خطوة بخطوة بعد أن صار زميلاً له في الفرقة الانتحارية الإمبراطورية، وظهر أمام عينيه الآن تماماً بنفس الهيئة التي كان يبدو بها قبل أن يفارقه للمرة الأخيرة أثناء المعركة.

كان نطاق خصره المخضب بالدماء السوداء يربطه حول جراحه بدلاً عن الضمادة الطبية. أجل.. كان ذلك النطاق يخص "طوكوشوه" ولكنه كان قد فكه عن خصره وربط به جرح زميله بعد أن أصيب في محاولة يائسة لإنقاذه.

كانت تلك الجبيرة الخشبية حول مفصل قدمه اليمنى المتفككة هي نفسها غصن شجرة الصنوبر الذي قام "طوكوشوه" بنفسه بتثبيتته على قدمه آنذاك!

رغم أن "إيشي مينيه" هذا كان من قريته ذاتها.. إلا أن "طوكوشوه" التقى به لأول مرة في حياته بعد دخول المدرسة النموذجية مباشرة. وبعد مرور أقل من نصف سنة توطدت بين الاثنين علاقة حميمة، حيث كانا يبوحان لبعضهما بأسرارهما الشخصية التي لا يستطيعان أن يبوحا بها لأي زميل آخر.. في الوقت نفسه الذي كانا يتبادلان فيه أيضاً المزاح والنكات أوقات الصفاء.

كان "إيشي مينيه" هذا قليل الكلام دؤوباً على المطالعة.. ولذلك فقد كان "طوكوشوه" في معظم الأوقات هو الذي يثرثر بالكلام، ومع ذلك فردوده القليلة البسيطة كانت تتم عن الحكمة والذكاء.. أجل لم يكن ينطق سوى بالمختصر المفيد، وكان "طوكوشوه" في المقابل يقهقه ضاحكاً بينما كان في الوقت نفسه يشعر في قرارة نفسه بالإعجاب. منذ بداية معركة "أوكيناوا"، ومنذ أن تم توزيع الاثنين على الفرقة الانتحارية الإمبراطورية، كان الاثنان موزعان على الفرق الانتحارية الإمبراطورية، وكانا مكلفان بمهمة نقل الأوامر وحمل الذخائر. وكانت الفرقة التي انتمى إليها الاثنان والتي كانت تتولى حراسة القطاع

الأوسط من ساحل الجزيرة وهي المنطقة التي كانت في الوقت نفسه خط النار الأمامي الذي تلقى موجة الهجوم الأولى لمشاة البحرية الأمريكية الذين نزلوا شاطئ الجزيرة وتوجهوا جنوباً، كانت تلك الفرقة قد لاقت مصير الدمار الشامل التام إبان الموجة الثانية لذلك الهجوم، ولم يكن أمام البقية الباقية من شتات الفرقة سوى الانسحاب نحو الطرف الجنوبي من الجزيرة. كان برفقتهم مجموعة من جنود جزر اليابان الأم ينتقلون طول يومهم هرباً من كهف إلى آخر، حتى جاءت تلك الليلة التي تلقى فيها "إيشي مينيه" شظية مباشرة في بطنه من دانة أطلقتها مدافع الأسطول الأمريكي، ومنذ ساعتها افترق الاثنان عن بعضهما البعض دون أمل في اللقاء مرة أخرى، وذلك عند كهف طبيعي في الطرف الجنوبي للجزيرة.

نهض الجندي الذي كان يرتشف الماء واقفاً على قدميه وأدى التحية كالمعتاد في وقار جم، ثم ذهب ليختفي من خلال الجدار لينتقم مكانه "إيشي مينيه" يجر ساقه اليمنى مستنداً بكلتا يديه على كتف زميله. تقدم خطوتين إلى الأمام ولم يكن يظهر خلفه أحد الجنود. وكان الصباح قد اقترب.

كان "طوكوشوه" حتى هذه اللحظة يغالط نفسه ويحاول تكذيب عينيه رغم إدراكه لما يراه أمامه، ولكن حين مَثَل "إيشي مينيه" أمامه هكذا بشحمه ولحمه، صار يدرك تماماً أن ما يراه أمامه هو الحقيقة بعينها: كان هؤلاء الجنود كلهم هم أنفسهم الذين تركوا لمصيرهم المحتوم وحدهم داخل ذلك الخندق الصخري الطبيعي على الساحل في تلك الليلة المشؤومة.

ها هو الألم يعود فجأة ليسرى في ساق "طوكوشوه" حينما مثل "إيشي مينيه" واقفاً أمامه، وأمسك رأسه بكلتا يديه كي يمنع صرخة كادت تتطلق من حنجرتة من شدة الألم. ظل "إيشي مينيه" خلال تلك الأثناء يعض طرفه ويلزم النظر إلى أرضية الغرفة دون أن يطالع وجه زميله.

ودون أن ينطق "طوكوشوه" بحرف أسلم رأسه إلى الوسادة وأغض عينيه وبدأ "إيشي مينيه" يلف مقدمة قدم "طوكوشوه" بكفيه الباردين ثم فتح فمه بشفتيه الشاحبتين ليبتلع إصبع زميله المتورم، وحين لمس لسانه فتحة جرح ذلك الإصبع سرت رعشة مباغثة مدغدة من أخصم الإصبع حتى مفصل الفخذ خلال الساق كلها في لحظة واحدة لتشعل ساقه المتحجرة دفعة واحدة. وفي اللحظة التالية انسابت من فمه صرخة مكتومة، وفي اللحظة ذاتها هاجمت أنف "طوكوشوه" رائحة تشابه رائحة العشب الطازج من خلال جسده الهرم العجوز!

في تلك اللحظة دوى في أذنه صوت يصيح قائلاً:

"يا صاحبي.. هل أنت على ما يرام؟".

حين لمحت "أوشي"، وهي تجلس عند طرف الفراش وتمسح بالمنشفة جسد زوجها، ذلك الزائر المفاجئ الذي لم يكن إلا "سى يوو" تحولت قسمات وجهها في لحظة واحدة لترتسم عليها علامة الضجر والتأفف: وهنا زجرتة قائلة:

"اللعة.. ما الذي جاء بك الآن؟".

ورغم كلماتها اللاذعة تلك إلا أن "سى يوو" رد عليها بابتسامة ودودة ارتسمت على وجهه الذي صار أسمر من فرط شرب خمر

الأرز، ثم مَدَّ يده بلفافة بيضاء بها شيء ما يبدو أنه جلبه من السوبر ماركت ليقدمه لـ"أوشي" ثم صاح قائلاً:

"جئت لعيادة المريض والاطمئنان عليه. خذي هذه اللفافة منى.. إنها هدية".

عندما مدت "أوشي" يدها داخل اللفافة وأخرجت ما بداخلها.. رأت أمام عينها ثمار "الباباز" والقثاء المرة، فأدركت بحاستها أن ذلك الرجل سرقها من مكان ما.

"إنني لا أقبل منك شيئاً... فلملم تلك الثمار واغرب عن وجهي!"

من تلك الثمار التي رقدت فوق المنضدة.. ثمار "الباباز" التي نضجت عن آخرها وتشققت قشرتها وكادت تهترئ، صارت وفاحت رائحتها اللزجة في أرجاء الغرفة، وفي اللحظة التالية أطلت دودة كبيرة برأسها من القشرة الممزقة وأخذت تزحف خارجة من تلك الثمرة البرتقالية اللون. وهنا التقط "سي يوو" هذه الدودة بأطراف أصابعه وقذف بها من النافذة.. فطارت بعيداً في الهواء وهي تلمع بجسدها الأخضر.

"اللعنة.. من أين سرقت تلك الثمار بحق السماء؟".

"يا أختي.. لقد اشتريتها وجئت بها".

لكن "أوشي" ردت عليه بوجه حانق:

"يا لك من كاذب أخرق".

لكن.. ما كان منه إلا أن وقف متكناً على إطار النافذة وهو يضحك ضحكة حاول بها استرضاء "أوشي" وامتصاص غضبها، بينما كان يحك رأسه الأصلع بأصابعه.

كان "سي يوو" يبدو وكأنه طعن في السن فجأة خلال هذا العام الفاتت، وربما كان مظهره هذا هو ما دفع "أوشي" إلى الشعور بالشفقة فجأة على حاله ومنعها من أن تقدم على طرده من الغرفة.

لقد كان "سي يوو" في نفس سن "طوكوشوه"، وكان ابن عمه مباشرة. عاش حياته وحيداً أعزب، وكان بين وقت وآخر يرحل إلى اليابان الأم لكسب لقمة العيش، وأحياناً أخرى كان يخرج إلى "ناها" عاصمة جزيرة "أوكيناوا" ليعمل باليومية في هذه الحرفة أو تلك، لكنه كان دائماً يعود إلى القرية قبل موعد رأس السنة (بالتقويم القديم) ليقضي الوقت في المنزل الذي تركه له والداه ليقوم بالعمل في حصاد قصب السكر باليومية.

لكنه هذه السنة لم يعد إلى القرية كعادته في ذلك التوقيت من السنة، وهو ما جعل "طوكوشوه" وزوجته يشعران بالقلق عليه، ورغم هذا فبمجرد أن وقعت عينا الزوجين على وجهه حتى شعرا بالقرف والامتعاض قبل شعورهما بالسرور لرؤيته.

وبالرغم من أن الجميع كانوا ينعته بلقب "فأر الجحور" لضعف جسمه ودمامة وجهه، إلا أن أسنانه فقط كانت بيضاء قوية مثل أسنان الخيل.

وقف هناك أمام الفراش يرمق "طوكوشوه" الراقد أمامه مملوءاً بعلامات الفضول والتعجب بينما كان يلبس سروالاً شمر ذيله طبقتين.. وهو ذلك السروال الذي كان يبدو أنه من نفايات أحد الجنود الأمريكيين، وعلى العكس فقد كانت فائلته التي يرتديها فاخرة عالية الجودة ويبدو أنه اشتراها من أحد الأكشاك الموجودة على الشاطئ.

صاحت "أوشي" قائلةً في قرف وضجر:

"ياللك من متصاب أخرق رغم بلوغك السبعين".

كانت "أوشي" تقنع نفسها بأن ذلك الرجل هو السبب الرئيسي في

فساد سلوك زوجها وغرقه في شرب الخمر ولعب الميسر.

كان "سي يوو" في هذه اللحظة يلف ساقيه بمنشفة كبيرة حين

اقترب من الفراش، لكنه نزعها على حين فجأة بيده، وفي اللحظة

التالية التقط بتلك اليد منفضة الذباب البلاستيكية وضرب بها بكل قوته

ذبابة تقف هناك.

"ماذا تفعل أيها الأحمق أتضرب يدي؟

لا تلمسني بيدك القذرة تلك".

"ماذا تقولين يا أختي.. أخيراً تفعل شيئاً جيداً؟".

"لن يفيدني قلقك على بشيء... لا تلمسني مطلقاً".

اختطفت "أوشي" المذبة منه ولوحت بها في الهواء تريد ضربه،

ففر "سي يوو" منها هارباً إلى زاوية من زوايا الغرفة. من مكانه ذلك

استطاع أن يلمح للمرة الأولى وبوضوح ذلك الماء المتسرب من إصبع

"طوكوشوه"، أجل.. كان إصبعه الكبير المنتفخ مشقوقاً وكانت هناك

قطرات كبيرة من الماء تنزلق من الإصبع على بطن القدم ثم تتساقط

من الكعب لتستقر في ذلك الدلو، فصرخ "سي يوو" صائحاً:

"ما هذا الماء؟".

لكن "أوشي" لم تجب عليه بشيء.

كان ذلك السائل المتساقط قطرة بعد الأخرى إلى الدلو يشكل

دوائر متتابعة على سطح الماء. كان شفافاً لا لون له، وكان يعطي

انطباعاً للنظر إليه بأنه سائل صافٍ أكثر صفاءً من الماء نفسه!

اقترب "سي يوو" بوجهه بدافع الفضول الشديد ليحديق في قدم
"طوكوشوه" وقال متعجباً:
"ماذا يحدث بحق السماء؟".

لكنه في اللحظة التالية لم يشعر إلا بصوت طرقة المذبة
البلاستيكية وهي تهوي فوق رأسه. ولم تكتف "أوشي" بذلك بل أخذت
تركله في مؤخرته وهي تستشيط غضباً وتصيح:
"ابتعد عنه أيها الأحمق".

كان "سي يوو" قد حمل بكلتا يديه ذلك الدلو الذي امتلأ عن آخره
ومضى به يسير بصعوبة نحو حافة النافذة، وعندما حاول رفع الدلو
إلى أعلى لكي يقذف بالماء خارج النافذة شعر بصعوبة شديدة في تنفيذ
ذلك لتقل وزن الدلو، فعاجلته "أوشي" مرة أخرى بالصياح والصراخ
قائلة:

"نحن في غنى عن خدماتك، فكف عن هذا!"

أحس "سي يوو" هنا بعدم جدوى ما يحاول القيام به من مساعدة
تلك المرأة العجوز فصار يتكئ بعضديه على إفريز النافذة مغلوباً على
أمره ويتأمل الماء المنسكب هناك على أرض الحديقة.

كانت الأعشاب البرية المتكاثفة المتشابكة تغطي الحديقة الخفية
للبيت، وقد أدرك من النظرة الأولى أن "أوشي" بالرغم من اشتهاها
بالحيوية والنشاط وحب العمل، لم تعد تستطيع متابعة العناية بالحديقة
وتنظيفها. كان سور الشجيرات المحيط بالحديقة والبيت عشوائياً،
والزهور الحمراء الياضعة في تلك الشجيرات تتلألأ تحت السماء
الزرقاء الصافية. وهناك وسط الأغصان المتشابكة لمح زهرتين

صفراوين يانعتين لم يتبين من شكلهما إذا ما كانتا من ذلك النوع أو الآخر من فصائل الشامام.

وبينما كان "سي يوو" مستغرقاً ومأخوذاً بهاتين الزهرتين الصفراوين الكبيرتين راوده خاطر مفاجئ. أجل.. رغم أن تلك الأعشاب البرية أو تلك الأغصان الباسقة من سياج الشجيرات كانت متكاثفة بسبب تركها دون عناية ورعاية... وبالتالي كان نموها وطولها غير طبيعي.. إلا أن شدة تلك الكثافة وتلك الأطوال والأحجام كانت تتجاوز الأحجام العادية التي اعتاد رؤيتها، وهذا مما جعله يشك في تأثير تلك المياه التي تسكبها "أوشي" بين وقت وآخر خارج النافذة، فقد كانت البقعة الموجودة تحت النافذة مباشرة من أكثر البقاع كثافة للأعشاب مقارنة بباقي أجزاء الحديقة. أجل.. كانت الرقعة الواسعة التي تحيط بتلك الرقعة العالية الكثافة تنمو بين الأعشاب البرية بشكل متفرق وغير متكاثف الدرجة، وكانت قصيرة الارتفاع، كما أن شجيرات السياج كان يبدو من شكلها أن "أوشي" قامت بتقليمها منذ فترة ليست بالبعيدة. وبينما كان العجب يستولى عليه مما يشاهده، إذا به يسمع صراخ "أوشي" الهستيري "يдахمه" مرة أخرى من الخلف:

"إذا لم تكن لك حاجة هنا الآن فلتصرف عنا".

عندما التفت خلفه رأى "أوشي" هناك تقف أمام المروحة الكهربائية وهي توجه إليه نظراتها النارية المتأججة.

"يا أختي.. ألم تشاهدي مدى كثافة تلك الأعشاب والشجيرات؟".

لكنه أدرك من قسما ت وجهها أن كلماته تلك لم تردها سوى سخونة وحنقاً. كان "سي يوو" يدرك تماماً أن تكاثف وعشوائية تلك الأعشاب البرية في الحديقة كان يعني بالنسبة لـ "أوشي" عاراً كبيراً،

وحرماً عميقاً، وتشكياً في قدرتها على العناية ببيتها، فبدأ يفاوض المرأة العجوز وهو يحرص كل الحرص على انتقاء كلماته حتى لا يزيد غضبها:

"يا أختي الكبيرة.. ألا تستأجرينى لكي أقوم بمساعدتك في نزع الحشائش وفلاحة الحقل؟ إنني مستعد للمشاركة في مساعدتك في ترميض "طوكوشوه" ابن عمي، إنني لا أطلب الكثير منك.. فلتدفعي لي ما تستطيعينه.. قد يكفي أن تطعميني بما تجودين به أثناء قيامي بخدمتك".

أخذت "أوشي" تفكر فيما عرضه عليها على حين فجأة دون أن تتبدل تعبيرات وجهها الغاضب. أجل.. فقد كانت في سريرتها تشعر بالحاجة إلى معونته، فقد كانت فترات خروجها إلى الحقل محدودة، ولم يكن هناك براح من الوقت تستطيع خلاله القيام بنزع ذلك الكم المهول من الأعشاب البرية، كما أنها صارت تشعر أنه جاء الوقت الذي صار لزاماً عليها فيه أن تقوم تكثيف مرات قيامها بتقليب زوجها في رقدته في أوضاع مختلفة حتى لا تداهمه قرح الفراش.

عرض عليها بعض جيرانها بالفعل القيام بمساعدتها، لكن شخصية "أوشي" العزيزة الأبية كانت تمنعها من التجاوب مع تلك العروض والتسبب في إزعاج الغير. لقد شعرت بالحنق لأنها أصبحت في حاجة إلى مساعدة ذلك البغيض "سي يوو"، فردت عليه بلهجة محذرة متوعدة:

"يجب أن تعلم جيداً أنه إذا سولت لك نفسك أن تتكاسل عن العمل أو تمد يدك القذرة لتسرق قشة واحدة من البيت.. فإنني سوف أحطم لك عظام خصرك أيها الملعون".

انتهى الأمر بالاتفاق على أن تدفع له أجرة يومية قوامها ألف "ين" بالإضافة إلى الوجبات الثلاث.

اشتترط عليه أن يبذل دلو الماء فور امتلائه على الفور، وأن يقوم كل نصف ساعة بتغيير وضع نوم "طوكوشوه" وأن يبلغها على الفور بأي ظاهرة غريبة تطرأ على حال زوجها. وبعد أن انتهت "أوشي" من إملأء شروطها عليه ركبت دراجتها المتهاككة ذات الإطارات الأربعة وانطلقت في طريقها إلى الحقل في عشوائية وترنح حتى إنها كادت تصطدم مرتين بأطفال المدرسة الابتدائية العائدين من المدرسة في الطريق إلى منازلهم.

صار "سي يوو" يراقب بين وقت وآخر سيقان "طوكوشوه" ويجلس عند طرف وسادته محاولاً تسليته بأحاديث مختلفة، ولكن لما لم يكن هناك أي رد فعل ظاهر يدل على استماعه إليه.. شعر في نهاية الأمر بالملل فراح يرفع صوت المذياع ويضبط القناة على موجة الموسيقى الشعبية "الأوكيناوا"، ثم استند بظهره إلى الحائط وراح في غفوة خفيفة. ولكن بعد مرور نصف ساعة تقريباً من إغفائه أفاق على إحساس ببرودة سائل ما يتسرب إليه خلال نصف جسده السفلي! وحينما فتح عينيه ونظر إلى منطقة حوضه.. اختلط عليه الأمر في البداية، وتصور أنه تبول على نفسه لا إرادياً! قام منزعجاً متوتراً، وبدل الدلو الممتلئ بدلو آخر، ولكنه لاحظ عندئذ أن معدل الماء المتساقط من كعب "طوكوشوه" قد زاد كثيراً.. ولاحظ أن الماء المنسكب من الدلو - بعد امتلائه السريع - قد بلل أرضية الغرفة واتسعت رقعته بشكل واضح، "ياللهول.. لقد تفاقمت الأمور!"

قام "سي يوو" بسكب الماء عبر النافذة، ثم عاد مسرعاً ليشرع في تنشيف أرضية الغرفة. إلا أنه عاد وتوقف عن عمله لينظر ملياً إلى

ذلك الإصبع الكبير الذي تورم كثيراً عما سبق وقد غلبته الدهشة، ثم زفر زفرة عميقة من أعماق صدره وهو يتمتم قائلاً:

"ومع هذا.. فياله من أمر محير!"

وشعر "سي يوو" في اللحظة التالية برغبة ملحّة في حك ظهره يديه، فكان قد شعر بالتآكل فيهما منذ دقائق.. وذلك الشعور قد صار مزعجاً هذه اللحظة، وحين فرد كفيه منزعجا ورمقهما وجد هناك بقعاً سوداء غامضة تفترش ظهري يديه، فلما رمقهما جيداً وجد هناك بقعاً قد التصقت بيديه، فأخذ يهز يديه في حركة عصبية لنشر تلك البقع السوداء لكنها لم تكن إلا شعيرات يده التي نمت بسرعة وبشكل غير طبيعي، فاقشعر بدنه من الدهشة والرعب.

كانت شعيرات جسده قصيرة غير ملحوظة تماماً مثل "طوكوشوه"، ولهذا السبب فقد كان مثل ابن عمه يحاول دائماً منذ سنوات أن يحلق تلك الشعيرات لعلها تعود فتتمو بكثافة وقوة. لكن تلك المحاولات كلها كانت تبوء بالفشل، فيبقى شعرهما مثل الزغب الذي يشابه شعيرات الأطفال.. أما الآن فما هو يرى بعينه ذلك الشعر ينمو متكاثراً أسود حاداً من ظهر أصابعه وظهر كفيه ليصل حتى معصميه.

وبينما كان "سي يوو" شاردأ وهو ينظر إلى ذلك الشعر النابت الأسود اللامع إذ طرأ له فجأة خاطر ما.

لقد انتقل إلى النافذة ونظر منها إلى الحديقة الخلفية، فإذا بالماء الذي كان قد سكب منذ قليل هناك تحت النافذة يتلألأ تحت أشعة الشمس، ومن خلاله كانت هناك أعشاب متكاثرة باسقة تتضح برائحة الخضرة النضرة.. وهي التي لم تكن موجودة هناك منذ قليل! وعند السياج القريب - حيث طاله جزء من تلك المياه- ظهرت هناك زهور

حمراء وصفراء يانعة كبيرة. عاد "سي يوو" مرة أخرى إلى حيث الدلو واغترف بكفيه حفنة من الماء وأخذ يسكبه على رأسه الصليح بينما أخذ يطرقع براحتي يديه فوق رأسه. لم تكد تمر سوى دقائق خمس حتى بدأت النتائج تظهر.

كان يشعر بتآكل ورغبة في حك رأسه وكأن هناك حشرات صغيرة تتجول تحت جلده، وعندما أخذ يتحسس رأسه براحة يده شعر ببروز بصيلات قوية نمت منها خصلات شعر طرية الملمس.

كان "سي يوو" يحاول خلال تلك اللحظات أن يكبح جماح ضربات قلبه المتتابعة السريعة وهو يعود ليغترف من الماء الموجود بالدلو. لم يكن قد لاحظ وجود فرق بين هذا الماء والماء العادي.. لا في اللون ولا في الملمس.. وحين قرب الماء من أنفه لم يشعر بوجود أية رائحة غريبة.

عاد "سي يوو" ليفرد كفيه تحت كعب قدم "طوكوشوه" ليتلقى قطرات الماء المتساقطة منه، ثم بدأ يلعب الماء في حرص شديد. كان مذاق الماء عذباً عن طريق تذوقه بلسانه، وبعد أن ملأ به فمه أحس بوجود مذاق حلو أكثر عذوبة، لقد أخذ بعد ذلك جرعة أكبر وابتلعها ابتلاعاً وهو يدير لسانه داخل جوفه، لكنه في اللحظة التالية شعر بكتلة مفاجئة من السخونة تداهم فتحة شرجه.. لتسري ك تلك السخونة بعد ذلك في لحظات معدودة في جسده كله. وعند خصره أحس بدغدغة لذيذة تسري فيه، وإذا بمقدمة منطاله عند منطقة الحوض تنتفخ بارزة للأمام!

تلك السنوات الأخيرة لم يكن يشعر بشيء إذا ظهرت أمامه نساء جميلات، فكان عضوه الذكري مثل رأس طائر القبرة الميت، لكن ها هو يراه الآن مثل رأس حية تهتز!

في اللحظة التالية قفز "سي يوو" في الهواء فجأة وهو يتخذ
أوضاع الكاراتيه القتالية بيديه وقدميه ثلاث مرات متتالية في انثناء
وعصبية ظاهرتين، ثم صاح قائلاً:

"أريد امرأة.. في التو واللحظة!"

انطلق بعد ذلك خارج الغرفة ليبحث عن دلو جديد يملؤه بقطرات
الماء مرة أخرى.

أفاق "طوكوشوه" وفتح عينيه على إحساسه بلعق شخص ما
لإصبعه الكبير وكذلك بصوت ضحكات هستيرية عالية.

كان الجنود المعهودين قد دخلوا بالفعل في نوبتهم الثالثة، وحين
أدرك "طوكوشوه" أن هؤلاء هم أنفسهم الجنود الذين تركهم في تلك
المغارة يواجهون مصيرهم ويموتون وحدهم، ظن في البداية أنهم
جاءوا للقصاص منه وقتله. لكنه عندما شعر بالأمان ناحيتهم.. أحس
أن سبيله الوحيد للتكفير عن ذنبه ناحيتهم هو إشباع ظمئهم بقدر
استطاعته.. فصار في النهاية يشعر بالانثناء والسعادة من قيامهم على
التتابع بمص إصبع قدمه. لكن ذلك الشعور كان مختلفاً لديه الآن.

كان حال هؤلاء الجنود قد اختلف نوعاً ما مع بداية هذه الدورة
الثالثة. كان هؤلاء الجنود جالسين هناك مستغرقين في الحوار والثرثرة
وكانهم قد عادت إليهم صحتهم وحيويتهم، أو أنهم صاروا يعتادون جو
الغرفة، أو ينتظرون تساقط الماء، وكانوا بين حين وآخر يطلقون
ضحكات عالية يكاد صداها يصل إلى البيوت المجاورة.

ظل "طوكوشوه" يحدق في باب الغرفة المغلق مدفوعاً بإحساس
مزوج بالقلق من الانتظار وهو يتوقع مجيء "أوشي" لاستطلاع الأمر
بعد سماعها لتلك الضحكات، لكن الوقت كان يمر دون أن يلوح في
الأفق أي شيء يدل على انتباهها للأمر، في المقابل لم يكن هؤلاء
يعيرون أي انتباه أو اهتمام لوجود "طوكوشوه"!

كانوا يكتفون بأداء التحية المعتادة قبل وبعد رشف قطرات الماء والانحناء برؤوسهم دون أن يوجهوا نظرهم ناحيته مطلقاً.

وبخلاف "إيشي مينييه" فقد كان من بينهم أيضاً مَنْ تبادل معه بعض الكلمات أثناء وجوده معهم في تلك المغارة، ولأن هؤلاء لم يُظهروا ناحيته أي اهتمام بل تجاهلوه تماماً، أصبح "طوكوشوه" يشعر بالوحشة والضيق.

أخذ "طوكوشوه" يسأل نفسه عن سبب برودهم ناحيته بهذا الشكل وهو يشعر بالحزن والانكسار، ظل "طوكوشوه" يعاني من ذلك الإحساس بالانكسار عشرات المرات في النهار الواحد دون أن يجد لتساؤلاته إجابة، لكنه في الوقت نفسه كان يحاول أن يقنع نفسه بعدم السعي وراء معرفة السبب؛ لأن هذا في حد ذاته كان يصيبه بالرعب والفرع من عودة تلك الذكريات التي دفنها في أعماق صدره أكثر من خمسين عاماً، والتي إذا ما عادت إليه لانفجرت مثل عيون المياه الدايقة.

تذكر "طوكوشوه" هؤلاء التلاميذ الصغار الذين جاءوا للاطمئنان عليه وتحيته مع أستاذهم في المدرسة.. وذلك في ظهر أحد الأيام منذ سنوات طويلة.. لأنه خلال تلك السنوات العشر الفائتة ودائماً قبل حلول يوم الثانی والعشرين من حزيران (يونيو) -وهو يوم تأبين أرواح ضحايا معركة "أوكيناوا"- كان "طوكوشوه" يطوف بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية القريبة منه كي يقوم بإلقاء محاضرات عامة يتحدث فيها عن تجربته الشخصية خلال الحرب، وكان هذا التوقيت الذي يرقد خلاله بالفراش هو نفس فترة يوم التأبين، حيث كان من المفترض أن يقوم بزيارته في السنوات الأخيرة من تلاميذ المدارس أبناء التلاميذ الذين زاروه لأول مرة منذ سنوات بعيدة.

في بداية الأمر كان من دفعه إلى القيام بذلك النشاط هو مدرس لأحد المدارس الابتدائية يسكن في الحي نفسه، طلب منه الحضور لمدرسته للحديث أمام تلاميذ فصله. كان "طوكوشوه" قد رفض مراراً عروضاً مشابهة رغبة منه في الاحتفاظ بالذكريات الأليمة لتلك الحرب داخل أعماق صدره ومحاولة نسيانها.

استمر الحال على هذا الشكل إلى أن جاءه يوماً ذلك المدرس المدعو "كينجوه" والذي كان قد تخرج لتوه في الجامعة، فصار يلح عليه في إصرار وعناد شديدين، وهو الذي كان يبدو عليه شكه في مصداقية "طوكوشوه" لأنه لم يكن قد عاصر تلك التجربة. وفي يوم من الأيام اصطحب ذلك الشاب معه تلميذتين صغيرتين كانتا تمران معه على بيوت الرجال الذين عاصروا تلك المعركة الشرسة وتستمعان منهم إلى ذكريات وتفاصيل تلك الأيام.

صار الثلاثة يتضرعون إليه ساجدين أمامه.. لم يجد "طوكوشوه" بدأً من تلبية طلبهم. وحين قام "طوكوشوه" بإلقاء تلك المحاضرة.. كان طيلة الوقت منكباً على الأوراق التي أعدها فقرأها دون أن ينظر للحاضرين، وكان ذلك داخل حجرة دراسة في حصة خاصة بتلاميذ السنة السادسة الابتدائية. كان من المقرر أن يكون زمن الكلمة ثلاثين دقيقة، إلا أن "طوكوشوه" تلا كلمته باللغة الفصحى التي لا يعتاد الحديث بها وهو يتعثر بين جملة وأخرى، وأنهاها بسرعة في ربع ساعة فقط.

بمجرد أن رفع "طوكوشوه" وجهه عن أوراقه في حذر وقلق لينظر إلى وجوه التلاميذ ويطلع رد فعلهم، ساد صمت مطبق استمر لبضع ثوان إلى أن ضجت حجرة الدراسة بالتصفيق الحار.

استطاع "طوكوشوه" أن يلحظ بعض وجوه التلاميذ المنفصلة بعيونهم التي اغرورقت بالدموع وهم يصفقون بكل حماس وقوة، فأصيب "طوكوشوه" هو الآخر بالاضطراب والانفعال.. في الوقت نفسه الذي أصيب فيه بالدهشة وهو يسائل نفسه عن السبب الذي دفع هؤلاء التلاميذ إلى الانفعال والتأثر بهذه الدرجة.

منذ ذلك اليوم صارت تتكالب عليه طلبات المدارس الابتدائية والإعدادية لإلقاء محاضرات في نفس محيط القرية، وانتشرت شعبيته لتصل إلى القرى والمدن المجاورة.

في تلك الفترة ذاتها بدأت اللجنة التعليمية بالقرية في تسجيل التجارب الذاتية لعجائز القرية والمحاربين القدامى خلال معركة أوكيناوا، وكان حديثه إلى أعضاء هذه اللجنة بداية لزيارات متتابة من الصحفيين ومجموعات الدراسات الميدانية الجامعية له في بيته، كذلك قام "طوكوشوه" بتسجيل لقاءات تليفزيونية أكثر من ثلاث مرات.

حدث بعد ذلك أن قامت بزيارته مجموعات من الطلبة اليابانيين من اليابان الأم في إطار رحلات ترفيهية جماعية لنهاية الدراسة، وقد كان يدرك تماماً ما يريد هؤلاء الطلبة من معرفة قصته والاستماع إليه، فكان حريصاً على انتقاء كلماته وعدم الإفراط في ذكر أمور بعينها لم يذكرها أمام أبناء جزيرته، فقد كان أحياناً حين يستفيض في سرد ذكرياته يلحظ نظرات الشعور بالذنب الجادة في عيون بعضهم، وكان كثيراً ما يلحظ نظرات الخوف والرغبة في عيون آخرين.

في نهاية الأمر صارت زوجته "أوشى" تحذره قائلة:

"سوف يقع على رأسك إن أجلاً أو عاجلاً غضب السماء إذا تماديت في جمع الأموال والمكاسب من استدرار عطف الناس

ودموعهم بحكايات عن ميدان القتال قد تغلفها بحكايات وأكاذيب ملفقة مختلفة".

حتى لو لم تكن هناك نصائح أو تحذيرات من زوجته، فقد كان "طوكوشوه" بعد انتهائه من محاضرة ما أو لقاء، كان يعقد العزم على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة، لكنه بمجرد شعوره بالانتشاء من التصفيق الحاد ومن تلقي باقات الزهور وكلمات الثناء الحانية الودودة من التلاميذ.. كان يجد نفسه راغباً في مواصلة نشاطه وأحاديثه. أضف إلى هذا شعوره بترقب حجم المكافأة المالية عن كل محاضرة وذلك وهو في طريق عودته إلى البيت قبل فتح المظروف المغلق. كان "طوكوشوه" في معظم الأحيان ينفق تلك المكافآت على الخمر والميسر، لكنه أيضاً استطاع من خلال بعض تلك المكافآت شراء آلة وتريّة جديدة لـ "الشاميسين"، وكذلك شراء سنارة رائعة للصيد مجهزة بكل الإمكانيات.

صار الأطفال الذين زاروه للاطمئنان عليه في فراشه يرهقون بنظراتهم البريئة ساقه المغطاة بمنشفة كبيرة، وقال بعضهم له:

"تريدك أن تسترد عافيتك بأسرع وقت ممكن!"

ثم قاموا بالتتابع بتقديم باقات الزهور له وكذلك أشغال الورق الملون التي صاغوها على شكل طيور الكركي متمنيين له الشفاء العاجل. في هذه اللحظة شعر "طوكوشوه" برغبة جارفة في الاعتذار عن أية أكاذيب كان قد اختلقها خلال أحاديثه معهم، وأحس بأنه صار واجباً عليه أن يصارحهم بما جرى حقيقة في مسرح القتال، لكنه لم يجرؤ على ذلك، واكتفى بأن تدور تلك الخواطر برأسه وحسب! وهنا استعاد في ذاكرته كلمات زوجته "أوشي".

قالت له:

"سوف يقع على رأسك عقاب السماء إذا تكسبت المال على حساب استدرار عطف الناس لما حدث لك في ميدان القتال!"

كان هناك واحد من هؤلاء الجنود يحدق في "طوكوشوه". لقد كان يتذكر تلك النظرات المليئة بالخوف والرعب، وكانت نظرات رفاقه من الجنود الآخرين - على العكس - وتعبيرات وجوههم هادئة وديعة، أما ذلك الجندي الذي كان يبلغ العشرين من عمره تقريباً فكان يحتفظ طيلة الوقت بعلامات التجهم على وجهه.

كان كلما قام رفيق من رفاقه بأداء التحية والانحناء المعهودة امتعض ذلك الشاب وضغط بكفه على صدره وكأنه يعاني من الضيق، وبعد ذلك جاء دوره فجلس على ركبتيه وبدأ يشرب قطرات الماء.

بعد انهيار دفاعات الجزيرة ودمار القوات العسكرية أخذ "طوكوشوه" ورفاقه ينتقلون من مكان لآخر هرباً من الجحيم، واستمروا على حالهم هكذا حتى التقوا مرة أخرى بالشرانم المتبقية من فصيلتهم في ذلك الكهف الطبيعي بأقصى جنوب الجزيرة، وهو الكهف الذي كان قد تحول إلى مشفى ميداني. وكان من بين الموجودين هناك بعض الفتيات من طالبات المدارس اللاتي تم ضمهن إلى كتائب التمريض. وكان من بين اللاجئين إلى ذلك الكهف أيضاً عدد من مدرسي المدرسة التي كان ينتمي إليها، وكان الجميع يحاولون الاطمئنان على سلامة أقاربهم ومعارفهم عن كثب.

ومنذ ذلك اليوم مضت عدة أيام واصل خلالها "طوكوشوه" ورفاقه مهام نقل الأوامر، والحصول على الطعام، وملء الماء وإحضاره، ودفن الجثث، وغيرها من المهام دون أن يأخذوا قسطاً من الراحة.

وكان قد التقى بذلك الجندي الشاب حين كان يشرع في حمل دلو امتلأ بالبول والبراز إلى خارج الكهف. كان "طوكوشوه" وهو يشق طريقه إلى الخارج يزيح عن طريقه أيادي وأنزع المصابين الراقدين على أسرة مثبتة إلى الجدران على جانبي الممر الضيق، ولكن في لحظة ما أمسك أحدهم بطرف الدلو، فانسكبت محتويات الدلو فوق وجه واحد من الراقدين هناك.

تسمر "طوكوشوه" في مكانه وهو يتوقع سيلاً من السباب والشتائم سينهال عليه لا محالة بين لحظة وأخرى، لكن ذلك لم يحدث. ولما كان ذلك بالقرب من مخرج الكهف فقد استطاع "طوكوشوه" تمييز ملامح وجه ذلك الجندي الراقد على هدي بصيص الضوء المتسرب من المدخل، وهو الوجه الذي كان مبللاً بالبول والبراز.

كان ذلك الجندي يمد لسانه خارج فمه ويجتهد في لعق البول والبراز الذي أحاط بفمه، وكانت العصابة الطبية الملفوفة حول صدره تعلق وتهبط بشدة مع أنفاسه السريعة. وفي اللحظة التالية تحركت رأسه في وهن... وأحس "طوكوشوه" أن عيني ذلك الجندي الغائرتين في وجهه الشاحب النحيل كانتا تحدقان فيه.

في تلك اللحظة شعر أن هذا الجندي لن يطلع عليه الصباح! وهنا صاح "طوكوشوه" بصوت عال محاولاً طمأنته قائلاً:
"سأحضر لك الماء على الفور".

ثم اندفع "طوكوشوه" بسرعة مغادراً الكهف، لكنه في النهاية لم يستطع أن يفي بوعدته!
أفاق "طوكوشوه" على ألم يسري في قدمه من عضضة أسنان ذلك الجندي في إصبعه.

كان يبدو أن معدل نزول قطرات الماء قد ضعف عن المعتاد. وقد أخذ "طوكوشوه" يسائل نفسه عما إذا كان بهذا قد استطاع الوفاء بوعده القديم أم لا!

لكن الخوف والرعب من أن تتلبس جسده أرواح هؤلاء الجنود القتلى حتى الموت كان يتغلب على إحساسه بالراحة لنجاحه في ري ظمئهم.

في هذه اللحظة أخذ ذلك الجندي الذي اهترأ أو سقط جزء كبير من وجهه يلكر الجندي الجالس أمامه بركبته!

نهض ذلك الجندي المسكين واقفاً على قدميه وعلامات الانكسار وعدم الاكتفاء تكسو وجهه، ثم رمق وجه "طوكوشوه" بتلك العينين المرعوبتين اللتين كان يتذكرهما تماماً، وحين قام ذلك الجندي الشاب بالانحناء لأداء التحية، وضع كفه على صدره وكأنه يحبس الألم، ثم توجه ناحية الحائط واختفى خلاله.

بعده مباشرة جثا الجندي التالي على ركبتيه ليبدأ في مص الإصبع الكبير لـ"طوكوشوه". في هذه اللحظة طارت ذبابة من داخل ذلك التجويف الغائر في وجه الجندي وظلت تحوم لفترة من الوقت حول رأس ذلك الجندي، وبمجرد أن هبطت على ملاءة الفراش تلاشت واختفت عن الأنظار.

كان هذا الجندي هو الآخر واحداً من الذين تعلقوا بثياب "طوكوشوه" متضرعاً إليه في طلب الماء داخل ذلك الكهف.

أما ذلك الجندي الطويل القامة الواقف خلفه في انتظار الدور، وكذلك الجندي الأوكيناوي المختبئ خلفه، والجندي ذو الوجه المقطوع الذي خرج لتوه من الحائط... فقد كانوا كلهم في تلك الليلة داخل الكهف يمدون أياديهم وأذرعهم في إلحاح طلباً للماء.

داهم "طوكوشوه" شعور محموم في تلك اللحظة بأن قوة ما تجذبه جذباً وتشفطه شفطاً إلى غياهب ذلك الكهف ليدخل إليه مرة أخرى!
و حين شعر "سي يوو" بخيال شخص ما يقترب من الغرفة أسرع بلملمة النقود التي افترشها أمامه على الأرض، ثم خبأها تحت المساند والحواشي القطنية.

قام "سي يوو" بتوجيه ضوء مصباحه اليدوي من خلال النافذة إلى الحديقة الخلفية، بعد ذلك قام بإغلاق النافذة وتأكد من إغلاق "المزلاج" المعدني لها، وبعد أن اطمأن تماماً لعدم وجود أحد من الفضوليين عاد ليبدأ في إحصاء نقوده.

كانت فعالية الماء أكثر بكثير من توقعات "سي يوو"، على سبيل المثال فقد نبت الشعر خلال خمس دقائق فقط في رأس رجل كان يعاني من الصلع.. وكان رأسه دميماً مقرزاً من البقع السوداء التي غطته.

قام رجل آخر يعمل معلماً بإحدى المدارس الثانوية بإنفاق كل مدخراته لشراء حفنة من الماء من "سي يوو" وسكبه فوق رأسه، فنبت شعره خلال ثلاث دقائق فقط، وكان ذلك الرجل يعاني كثيراً من ضحكات الناس الساخرة وتعليقاتهم اللاذعة على صلعة رأسه.

كان هناك أيضاً من بلل وجهه بهذا الماء ليكتسب بشرة ناضرة "لامعة" بعد أن كانت البثور المقرزة تفترش وجهه، وكان هناك من سكب الماء على عضوه الذكري المنكمش المتهدل لسنوات طويلة ليجده في لحظات منتصباً كبيراً، لدرجة جعلته يحمل مقدمته حملاً من ثقله وهو يسير في الطريق.

وصل الأمر إلى درجة أن الكثيرين من أهل القرية من الرجال الذين كانوا ينعنون "سي يوو" بالنصب والشعوذة صاروا يتدققون متزاحمين وهم يطرقون باب منزل "طوكوشوه" طلباً لذلك الماء بأي ثمن بعد أن شاهدوا بأعينهم شيخاً في الثامنة والثمانين من عمره يفقهه ضاحكاً بعيون مفتوحة واسعة مثل عيون الفيل، بينما كان يتحسس مقدمه سرواله المنتفخة بعد أن دعك عضوه الذكري الضامر بذلك الماء.

لقد كان "سي يوو" يظن أنه غالي في الثمن حين عرض الزجاجاة المملوءة بذلك الماء من سعة اللتر الواحد بعشرة آلاف "ين"، إلا أنه فوجئ بنفاد كل الزجاجات خلال أقل من ساعة واحدة!

خلال اليومين الأول والثاني حينما بدأ "سي يوو" ملء زجاجات الخمر الياباني (الساكيه) الفارغة سعة اللتر الواحد - بعد أن جمعها من هنا وهناك - بتلك المياه الغامضة العجيبة، قام ببيع تلك الزجاجات المملوءة عند تقاطع الطريقين الرئيسيين بالمدينة المجاورة، ولكن بحلول اليوم الثالث، وبعد نفاد ذلك النوع من الزجاجات الشفافة، قام بالإسراع في جمع زجاجات بنية اللون بدلاً منها وكتب عليها بخط مذهب عبارة "ماء المعجزة" على ورقة بيضاء لصقها على الزجاجات، وبعد ذلك انتقل إلى مكان آخر عند ناصية من الشوارع التجاري الرئيسي ومارس نشاطه في البيع خلال ساعة واحدة من الساعة حتى الثامنة ليلاً، لكن الحقيقة أن الزجاجات كانت تباع كلها خلال ثلاثين دقيقة فقط.

وكان من سمع قصة ذلك الماء من أهل القرية يتجمعون ويأخذون دورهم في طابور طويل منذ الظهر! وكان "سي يوو" قد حدد زجاجاة واحدة فقط لكل زبون من الزبائن، ومع هذا فقد كان الكثيرون منهم لا

ينجحون في الحصول على شيء لنفاد البضاعة بسرعة شديدة، فكان "سي يوو" يضطر في النهاية إلى تحصيل النقود مقدماً من الزبائن الغاضبين وإعطائهم كوبونات للحجز للشراء في اليوم التالي.

لجأ "سي يوو" في النهاية إلى تخفيض العبوة إلى النصف ولمضاعفة الثمن لإرضاء الجميع ولمضاعفة المكسب.. ومع ذلك فقد زاد عدد الزبائن عن ذي قبل.

كان هناك أيضاً من اتهموا "سي يوو" بالنصب والخداع ادعاء منهم بأنه لجأ أخيراً إلى تعبئة الزجاجات بماء عادي بعد أن تأكدوا من ذلك من خلال فحص محتويات الزجاجات، ومع ذلك فقد ظهر التأثير الإيجابي واضحاً على أجساد كل من قاموا بالشراء وعلى صحتهم، حتى إن بعضهم من العجائز صار في النهاية يصلي أمام "سي يوو" اعتقاداً منهم بأنه متصل بالآلهة والأرواح وأن له قدرات خارقة.

وبينما كان "سي يوو" يبتسم ملء شذقيه وهو يتابع بعيونه اللامعة أرقام دفتر توفيره ويكدس النقود داخل حقيبته، كان يفكر جدياً في كيفية اختتام نشاطه التجاري بعد أن أدرك أن عصابات المافيا بالمنطقة ستبدأ بالتدخل لتحصيل الإتاوة منه لا محالة إن أجلاً أو عاجلاً.

وجاء رجال الإعلام مرتين لعمل لقاءات وحوارات مع "سي يوو"، ولذلك بدأ "سي يوو" يخطط جدياً للهروب بما معه من أموال إلى اليابان الأم قبل أن تلاحظ وجوده مصلحة الضرائب أو مكاتب التأمين الصحي.

كان معدل الماء المتساقط من قدم "طوكوشوه" قد بدأ في الانخفاض شيئاً فشيئاً بشكل ملحوظ، فصار "سي يوو" في خلال اليوم

الواحد يملأ بالكاد ثلاثة من الجرادل البلاستيكية، ومع ذلك فلو رفع الثمن قليلاً لكسب في اليوم الواحد ما يقارب مليوناً من الينيات، إلا أن حاسة شم "فار الجحور" الحساسة كانت تنذره بخطر قريب.

كانت فرائصه ترتعد من عصابات المافيا ومن مصلحة الضرائب، ولكن ما كان يثير رعبه أكثر من ذلك هو انفضاح أمره لدى "أوشي"! ولهذا السبب فقد أخذ يقلل من نشاطه في بيع الماء شيئاً فشيئاً.

حدد "سي يوو" لنفسه ثلاثة أيام أخرى للانتهاء من تجارته، بينما كان في الوقت نفسه يمضي نفسه بجولة على مواخير الدعارة في مدينة "هاكاتا" في أقصى غرب اليابان حتى طوكيو العاصمة، وبينما كان يحلم بتلك المغامرات وضع حقيبته المكتنزة بالنقود تحت رأسه وخلد إلى النوم.

مر أسبوعان كاملاً منذ أن تورمت قدم "طوكوشوه".

كان شهر "تموز" (يوليو) قد بدأ.. فحل القيظ والحر مع أزيز ألوف من حشرات الجراد الأسود. ومع هذا فلم تتقطع طوابير العجائز والصغار من أهل القرية الذين وفدوا على بيت "طوكوشوه" لمتابعة حالته وهو راقد بلا حراك كما هو.

تجاوزت أحاديث أهل القرية مسألة الماء المتساقط من إصبع قدم "طوكوشوه" الكبير لتأخذ منعطفاً آخر، حيث صاروا يذكرون الأساطير والخرافات المتوارثة منذ قديم الأزل بالقرية بشأن ذلك الرجل الذي فقأ عينيه ثعبان من ثعابين "الحنش" السامة الذي كان يختبئ في محراب معبد القرية، أو بشأن تلك العجوز الشمطاء التي عاشت حتى سن المائة وعشرة أعوام وظهر بجهتها بروز غريب، وهم يتوقعون حدوث معجزة جديدة لن يستغرب أحد ما حدثها مع ذلك الرجل المريض الراقد.

عادت " أوشي " إلى رتبة حياتها اليومية العادية، فصارت تستيقظ قبل أن تحل الساعة السادسة صباحاً لترتشف كوب الشاي الأخضر بينما تلتقط قطعة من السكر الأسود، ثم تخرج بعد ذلك قبل اشتداد الحر إلى الحقل للعمل. وكان "سي يوو" في المقابل يستيقظ في التوقيت نفسه ليشارك "أوشي" احتساء الشاي، ثم يعود إلى غرفة "طوكوشوه" ليواصل العناية به وتمريضه حتى غروب الشمس. وخلال ذلك كان يقوم بتنظيف الغرفة والذهاب لشراء حاجات البيت.. بل إنه كان يذهب من تلقاء نفسه لحش الاعشاب البرية لإطعام الماعز.

كان "سي يوو" مجتهداً مثابراً في عمله لدرجة أن "أوشي" صارت تشك في يوم من الأيام أنه أصيب بوعكة في صدره من الإجهاد في العمل. لكن الحشائش البرية النامية في كثافة ونشاط بالحديقة الخلفية للبيت كانت تعود للنمو في الليلة الفائتة.

كانت "أوشي" تنوي انتقاده ومهاجمته مرة أخرى بسبب ظهور تلك الحشائش بشكل مزعج.. لكنها عادت تكبح نفسها عن ذلك أمام مثابرتة وجديته الملحوظة في العمل في شئون البيت الأخرى.

حين عادت "أوشي" في السادسة مساء قامت بتبديل النوبة مع "سي يوو" فمسحت جسد زوجها بالمنشفة وقامت بتغيير ملابسه، وبعد ذلك تحممت ثم بدأت تتناول عشاءها، وبعد أن انتهت من هذا وذاك جلست على الأرض بجانب الفراش وأخذت تقص على زوجها أحداث هذا اليوم بالقرية بينما ألفت بأذنها مع المذياع.

كان الطبيب "ووشيرو" دؤوباً على القيام بزيارات للبيت للاطمئنان على حالة "طوكوشوه" بمرافقة بعض الممرضات حيث كان يتبادل معهن نوبات الزيارة على فترات قصيرة متتابعة دون توقف.

بالإضافة إلى تعليق قنينة الجلوكوز فقد كان متصلاً بأنف "طوكوشوه" ذلك الأنبوب البلاستيكي الخاص بإمداده بالغذاء، ولذلك فلم تكن حالته سيئة بشكل يدعو للقلق، فكان كل ما تغير أنه مال إلى النحافة قليلاً، لكن نضارة بشرته -على العكس- صارت واضحة ملحوظة المقارنة بذي قبل، وتحسن أيضاً قياس ضغط الدم الخاص به، وقد يكون ذلك راجعاً إلى توقفه عن شرب الخمر وتدخين السجائر خلال فترة رقوده على الفراش.

كانت ساقه لا تزال على حالها من الالتهاب والتورم دون تحسن ملحوظ، ولكن معدل تساقط قطرات الماء من إصبعه صار أقل من الأيام السابقة، وكان يبدو أن ذلك التطور يحدث خصوصاً أثناء الليل حيث يكاد الماء المتسرب ينقطع تماماً، لكن ما كان يثير القلق هو عدم استطاعته الجزم بما إذا كان ذلك علامة مبشرة أم علامة منذرة بمكروه ما!

كان الدكتور "أوشيرو" كلما التقى بالزوجة "أوشي" يعاود نصحتها بإدخال "طوكوشوه" إلى المستشفى. وبالرغم من أن "أوشي" كانت تصر على الاستمرار في الرفض بحجة عدم ثقته في المستشفى الجامعي، إلا أنها في الحقيقة كانت في قرارة نفسها قد بدأت تشعر بالقلق والحيرة يعتريان قلبها من ناحيتها، فلم تكن تتوقع أن تسوء حالة ساقه عما هي عليه الآن، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تشعر بأية بادرة للتحسن والشفاء في المستقبل القريب.

ولما كانت أحياناً تتخيل استمرار حاله هذه حتى الموت، فقد أصبحت كمن يريد التعلق بأية قشة للخروج من هذه الدائرة المفرغة.

لقد صارت "أوشي" تتمتم بين الحين والآخر في سريرتها قائلة:

— "يا لحيرتى.. ترى ماذا أستطيع أن أفعل؟".

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تصاب فيها "أوشي" بوهن العزيمة وقلة الحيلة والانكسار منذ زمن الحرب!

في تلك الليلة وبعد عودتها إلى غرفتها مباشرة، عاود هؤلاء الجنود الظهور في غرفة "طوكوشوه" كعادتهم كل ليلة.

عندما اندفع الجندي الأول ليلق إصبع قدم "طوكوشوه" وكأنه كان ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة.. شعر "طوكوشوه" برعشة قوية تسرى في جسده كله من إحساسه ببرودة شفتي ولعاب ذلك الجندي، ولم يستطع الاستغراق في النوم طوال الليل من قلقه من حركة ألسنة وشفاه هؤلاء الجنود حول إصبعه. وأصبح يشعر بالتوتر والضيق من ثرثرة وهممة الجنود، فصاح بهم يزرهم أكثر من مرة، لكن صوته المبحوح الضعيف كان يتسرب بالكاد من فمه وبالتالي لم يعره أحد منهم أي اهتمام.

شعر "طوكوشوه" هذه الليلة -ولأول مره- بأنه لو استمر الحال هكذا على هذا المنوال لفقد رشده، وأصيب بالجنون في آخر الأمر.

لم يستطع أن يسد أذنيه، وكذلك لم يستطع الانزلاق تحت لحافه لإخفاء وجهه، وكان كلما بدأ يغفو ويغيب عن الوعي.. استيقظ مرة أخرى. وفي اللحظة التي سمع فيها بالكاد دقائق ساعة الحائط معلنة تمام الخامسة، فوجئ برفيقه القديم "إشي مينيه" يقف مائلاً أمام عينيه!.. أجل كان واقفاً هناك يحدق في عيني "طوكوشوه"، ولم يكن هناك في الغرفة سوى الاثنين فقط، وها هو "إشي مينيه" الذي اكتفى طوال الليالي السابقة بالإطراق بوجهه محديقاً في أرضية الغرفة.. ها هو

يعتصر بقبضة يده ماسورة الفراش النحاسية ويستند بجنبه إلى الناحية اليمنى من الحائط، وهو يجلس القرفصاء ببطء، ثم بدأ يلحق بخفة وهذوء إصبع قدم رفيقه وقد كاد الماء ينقطع تماماً عن السقوط منه.

أخذت ذكريات تلك الليلة الأخيرة التي افترق فيها عن "إيشي مينييه" تطفو إلى ذهنه.

وقت الغروب انفجرت إحدى قذائف مدفعية الأسطول الأمريكي بالقرب منه ومن رفاقه مباشرة حين خرجوا يلتمسون طريقهم لتعبئة المياه.

في نفس لحظة الانفجار تآثرت أشلاء ثلاث من الفتيات المتطوعات اللاتي كن من طالبات المدارس الثانوية، أما "إيشي مينييه" فقد أصيب بشظية في بطنه ليمزق وتسيل منه الدماء، ولم يبق هناك سوى "طوكوشوه" سليماً يستطيع التحرك.

كان يبرز من كف "إيشي مينييه" في تلك اللحظات جسم غريب، وكان يضغط بهذه الكف على بطنه المصابة المجروحة بينما كان يتأوه من الألم، وهو ذلك الجسم الغريب الذي يظهر أمام عيني "طوكوشوه" كلما كان "إيشي مينييه" يقوم بتقطيع وتشريح لحم الخنازير وماعز الجبل!

قام "طوكوشوه" بحل الرباط الذي يلفه حول ساقه أعلى الحذاء وربط به عين "إيشي مينييه" بدلاً عن الضمادة الطبية، ثم أخذ يجره نحو الكهف الذي كانا يختبئان به. ولكن بمجرد دخوله إلى الكهف انهالت عليه صرخات شتائم الجنود المعتكفين بذلك الكهف لتطالبه بالإسراع في جلب الماء والطعام.

اضطر "طوكوشوه" إلى إرقاد "إيشي مينييه" بحالته تلك عند مدخل الكهف إذ كان عليه الإسراع بالانطلاق بحثاً عن المياه.

بحلول الليل ساد الهرج والمرج والصراخ أركان ذلك الكهف الكبير. كانت الأوامر قد صدرت بالتحرك لمغادرة المكان، فنهض من كانوا يستطيعون التحرك ليحملوا ما استطاعوا حمله.. فقد كان الأمر الصادر إليهم بالانتقال إلى الطرف الجنوبي للجزيرة.

تعالق صرخات الجنود الجرحى الذين أدركوا أن رفاقهم سيتزكونهم هناك لمصيرهم المجهول، واختلطت تلك الصرخات بزئيق جنود وضباط الصف من صغار الرتب، والذين كان أحدهم يزجر "طوكوشوه" ويعنفه لحثه على التحرك بسرعة هو ورفاقه من الجنود الصغار.. أجل لقد اختلط ذلك الصراخ ببعضه البعض في فوضى محمومة يلفها الظلام الدامس المقبض.

بعد ذلك بدقائق سمعت أصوات الأمتعة وهي ترتطم ببعضها البعض بينما كان يحملها "طوكوشوه" ورفاقه عن الأرض، وتختلط وتتداخل بصوت ارتطام قطرات المطر الكثيف الذي انهمر على المكان على حين فجأة، كانت كل تلك الأصوات المتداخلة تندوي في أذني ورأس "طوكوشوه" الذي كان يجلس القرفصاء بجانب "إيشي مينيه".

كان "طوكوشوه" خلال تلك اللحظات يجتهد في التفكير في كيفية إنقاذ رفيقه الجريح، لكنه في النهاية لم يستطع الوصول إلى أي شيء. كان ذلك الكهف الطبيعي محفوراً في بطن غابة متكاثفة بجبل محدود الارتفاع من الحجر الجيري المميز لجزيرة "أوكيناوا".

مع ارتطام المطر الكثيف بأوراق الأشجار المتكاثفة تصاعدت الشبورة لتجذب الرؤية أكثر فأكثر، ولتحجز بين جسد "إيشي مينيه" المختبئ في تجويف صغير بذلك الحائط الصخري بالقرب من مدخل المغارة وبين "طوكوشوه" الذي كان يجلس بالقرب منه.

في اللحظة التالية مرق اثان من جنود الاستطلاع خارجين من غياهب المغارة يحملان البنادق، وانزلقا مهرولين يشقان الطريق عبر المنحدر إلى أسفل الجبل خلال الأشجار الباسقة، وكان يبدو أن الانسحاب من المغارة قد بدأ بالفعل.

في اللحظات التالية كانت تظهر خيالات سوداء متتابعة للجنود المنطلقين في طريقهم إلى الهرب وسط الظلام الدامس منزلقين عبر المنحدر. وهنا حمل "طوكوشوه" جسد "إيشي مينييه" وأسنده إلى الجدار الصخري، ثم أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً وهو يكتم أنفاسه ليلحق ببقية الجنود المغادرين، بينما كان يلتفت بين لحظة وأخرى إلى الخلف مودعاً بنظراته خيال رفيقه المسجى هناك حتى غاب عن نظريه.

كان هناك عدد قليل من أولئك الجنود ممن كانوا يستطيعون السير بشكل طبيعي، أما معظمهم فقد كانوا يتكئون على بعضهم البعض أو يتوكأون على العصي وأفرع الأشجار وهم يأخذون زملاءهم في طريقهم فيسقطون معهم بسبب لزوجة التربة التي ابتلت تماماً بالمطر الغزير المنهمر بلا هوادة، وبين وقت وآخر كانت تنطلق الصرخات المكتومة التي تأمرهم بالصمت وكتم الأفواه.

في اللحظة التالية ظهرت أمام عيني "طوكوشوه" مجموعة من فتيات المدارس المتطوعات وهن يحملن رفيقة لهن على نقالة، وقد تعرف على وجه إحداهن حين اقترب خيالها تماماً منه.

كانت واحدة من بنات قريته اسمها "مياغي سيتسوقو" تبادلت معه حديثاً قصيراً بعد أن بادرت به بالسؤال:

"ما مدى إصابة الرفيق "إيشي مينييه"؟"

كان "إيشي مينيه" المستند بظهره إلى الحائط الصخري والذي خرجت أنفاسه ضعيفة متحشجة على وشك أن ينكفي على وجهه بعد أن خارت قواه، ولم يكن أمام "طوكوشوه" إلا أن يحرك رقبتَه يميناً ويساراً علامة على استسلامه للأمر وقلة حيالته، فلم تكرر عليه "سيتسوفو" سؤالها عن "إيشي مينيه".

كانت أصابعها الجافة المتشقة تطبق بقوة على رقبتَه، وفي اللحظة التالية دفعت إلى راحتي يديه قارورة معدنية للمياه وكيساً من الورق، وفي اللحظة التالية رفضت عنها ذراعي "طوكوشوه" اللتين كانتا تحاولان الإمساك بها ودفعتها إلى العودة مرة أخرى إلى مكان "إيشي مينيه"، وبعد ذلك وضعت كفيها على كتفي "طوكوشوه" وضمتهما بقوة وهي تصيح به قائلة:

"سننطلق نحو مغارة العمليات الجراحية السريعة بمنطقة
"إيطومان"، وعليك أن تلتحق بنا إلى هناك، فلا تتلأأ".

كانت نظراتها حادة وهي تحرق بوجه "طوكوشوه" تحته على البقاء طويلاً، بعد ذلك مدت "سيتسوفو" يدها لتمسح بها وجه "إيشي مينيه" في رفق وكأنها تودعه الوداع الأخير، ثم انطلقت مسرعة تشق طريقها خلال الأشجار المتكاثفة عبر ذلك الجرف المنحدر الوعر، كان كل ما ميزه "طوكوشوه" خلال الظلام الدامس هو ضفيرتي شعرها وهما تتأرجحان خلف ظهرها وبينما تسرع الخطو.

لا يذكر "طوكوشوه" كم من الوقت مر عليه وهو يجلس القرفصاء هناك بجانب "إيشي مينيه"، وكان خيال الجنود المسرعين المبتعدين يتضاءل، وكان "طوكوشوه" قد خارت قواه وهو ينحني إلى الأمام على عكازه، وما لبث أن انكفأ على وجهه وهو يزحف زحفاً بيديه وقدميه

مثل حيوان جريح التوت أقدامه الأربعة تحته، بينما كانت صرخات ولعنات وبكاء "إيشي مينيه" تتابعه في يأس وتختلط بصوت طرطشات الطين الذي يزحف خلاله "طوكوشوه"، وفي تلك اللحظات استطاع "طوكوشوه" أن يميز بالكاد أصوات صرخات زملائه الجنود المكتومة وهم ينزلقون وينتدحرجون ثم يستقرون بلا حراك أسفل الجرف الوعر.

"طوكوشووه!"

أحس "طوكوشوه" بأن صوت "إيشي مينيه" الضعيف الوهن يستجد به، أو هكذا تخليه، فرد عليه هاتفا بصوت عال:

"إيشي مينيبه!"

ولكن لم يكن هناك من مجيب!

عاد "طوكوشوه" أدراجه نحو مكان "إيشي مينيه" وهو يتحسس طريقه في الظلام، وعندما وصل إلى مكانه.. قرّب وجنته من وجنة "إيشي مينيه" محاولاً تحسس أنفاسه، فأدرك زفراته الضعيفة الواهنة، فقام "طوكوشوه" بإرقاده على الأرض، وهنا التقطت أذناه صوت حشرجة ضعيفة تصدر من بطنه المصابة والمربوطة بحزام سرواله العسكري (الجتز)، فأخرج كسرة جافة من الخبز من داخل الكيس الورقي الذي تسلمه منذ قليل من "سيستوقو" ووضعها في يد "إيشي مينيه" وساعده في أن يقبض عليها بقوة. وبعد ذلك صب بعضاً من ماء الزمزية في راحة يده وزحلقها في فمه المفتوح الذي ظهرت من خلاله أسنانه البيضاء اللامعة.

ولحظة أن رأى "طوكوشوه" خيوط الماء المنساب من طرفي فم "إيشي مينيه" وتزلق على صدغيه.. لم يستطع رؤية هذا المنظر، فوضع فوهة الزمزية على فمه وأخذ يجرع الماء وكأنه يموت

عطشاً، وعندما أخذ يلتقط أنفاسه بعد الانتهاء من الشرب كانت الزمزية قد صارت فارغة تماماً. لكن في اللحظة التالية بدأ يشعر بوخز مؤلم ينتشر خلال كل خلايا جسده. ركع "طوكوشوه" على ركبتيه وأخذ يحدق في رفيقه "إيشي مينيه" المسجى على الأرض، شعر أنه لم يعد قادراً على حمل "إيشي مينيه" أو التعديل من وضعه لتصلب جسده وثقله، وكانت الظلمة الجاثمة والماء المخلوط بالطين قد تشرب بهما ذلك الجسد خلال كل خلاياه. في تلك اللحظات أيضاً لم يعد يسمع أي صوت صادر من داخل المغارة.

وضع "طوكوشوه" الزمزية الفارغة بجوار خصر "إيشي مينيه" ثم همس إليه قائلاً:

"اغفر لي يا "إيشي مينيه"!"

بعد ذلك انزلق بجسده على المنحدر بسرعة بينما أخذت أغصان الشجر تصطدم بوجهه بقوة، وظل هكذا مندفعاً حتى نفذ من خلال الدغل الكثيف.

على ضوء القمر ظهر أمام عينيه ذلك الطريق الحجري الأبيض، وشيئاً فشيئاً أخذ يميز أجساد الجنود المفروشة على الطريق وكأنها قطع من المحار الأسود المتناثرة، وعلى البعد على الناحية الأخرى من الطريق كان هناك خط من الأجساد المسجاة على الأرض طويل متعرج أسود يشبه ثعباناً ضخماً يعاني سكرات الموت، بينما تتقشر قشوره قشرة قشرة، وتهوى إلى الأرض، انطلق "طوكوشوه" يعدو مترنحاً بحذاء ذلك الصف الأسود من خلال الجنود الممددين على قارعة الطريق، وكان يعتقد أن هؤلاء الجنود المسجون هناك الفاردين أذرعهم قد فارقوا الحياة جميعاً، إلا أنه تعثر أثناء ركضه بذراع

احدهم الذي امتد فجأة فانكفاً على وجهه، وحين التفت خلفه مذعوراً شاهد ظلاً أسود يزحف نحوه وهو يمد ذراعه إليه محاولاً التشبث به، لكن "طوكوشوه" دفع تلك الذراع بعيداً بكل قوة وهو خائف يرتعد، وفي اللحظة التي حاول فيها النهوض على قدميه مرة أخرى فوجئ بألم رهيب يسري عبر ساقه اليمنى، فتملكه الزعر من أن يعجز عن الهرب ويواجه نفس مصير الآخرين فأخذ يجر ساقه جراً محاولاً الاستمرار في العدو بكل قوة. وعلى حين فجأة دوى صوت انفجار شديد خلف ظهره.

كان الوهج الشديد الباهر الناتج عن الانفجارات المتتابعة يغطي أرجاء الدغل الخفي الذي نفذ خلاله منذ لحظات، وخشي "طوكوشوه" أن يكتشفه الجنود الأمريكيون على هدي ذلك البريق اللامع، فأخذ يواصل ركضه وهو مجردراً ساقه، مذعوراً، وهو يسب ويلعن جندياً من رفاقه فجرّ نفسه على مقربة منه بقنبلة يدوية، وبعد ذلك بأربعة أيام كان "طوكوشوه" قد وقع أسيراً في أيدي القوات الأمريكية عند ساحل "مابوني" أقصى جنوب الجزيرة، ولقد علم بعد ذلك أن بعض الجنود الأمريكيين قاموا بانتشاله وإنقاذه حيث كانت الأمواج المتلاحقة عند الساحل تتقاذفه وتورجه وهو فاقد للوعي.

منذ ذلك اليوم ظل يعيش أيامه مرعوباً في معسكر الأسرى وفي القرية؛ خوفاً من أن يفضح أمره لدى أهل الجزيرة فيلومونه على تخليه عن "إيشي مينييه" وتركه وحيداً يواجه مصيره المحتوم.

بعد أن عاد إلى قريته بأسبوع.. جاءت والدته "إيشي مينييه" لزيارته، حاملة معها بعضاً من المعلبات التي يوزعها الجيش الأمريكي كمعونة لأهل الجزيرة وبعضاً من ثمار البطاطا، ولم يستطع أن يتحمل النظر إليها وعلامات السرور البريئة تغمر وجهها بعودته سالماً وكأنه

واحد من أهلها. لقد كذب عليها حين أخبرها بأن "إيشي مينيه" تاه عن ناظره أثناء الفرار، وأنه لا يعرف أين يكون وما حدث له.

مع مرور الشهور والسنين، وفي خضم زحمة الحياة اليومية ومشاغلتها.. نسي "طوكوشوه" تماماً ما كان من أمر "إيشي مينيه" ولم يعد يتذكر أحداث تلك الليلة أبداً، أو على الأصح فقد كان يجتهد في محو تلك الذكريات محواً.

كان أبوه "مينيه طوكو"، الذي تم تجنيده في فرق الدفاع عن الجزيرة، قد صار هو الآخر في عداد المفقودين ولم يعد أحد يعرف مصيره.

أما جده وأختاه الصغيرتان فبعد الإفراج عنهم من معسكر الأسرى لقوا حتفهم الواحد بعد الآخر مصابين بعدوى الملاريا.. وكل من تمكن من لقائه مرة أخرى هما جدته وأمه ثم أخوه الأصغر الرضيع.. ولم يتبق منهم سوى هؤلاء الثلاثة. كانت أمه أصلاً ضعيفة الجسد هزيلة معلولة، ولهذا فلم تكن تستطيع إرضاع وليدها.. وكان اسمها "طومى"، أما وليدها الرضيع فقد كان الذباب يتجمع بصفة دائمة فوق البثور والدمامل التي افترشت رأسه الأقرع، ولم يعيش طويلاً حيث لفظ أنفاسه قبل أن يبلغ من العمر عاماً واحداً. وأوكل "طوكوشوه" أمر رعاية وتمريض أمه "طومى" الطريحة الفراش إلى جديه، وقام بتزييف سنه لدى جيش الاحتلال الأمريكي ليرتزق بأعمال حمل الأمتعة في الميناء العسكري الأمريكي رغم أنه لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.. وذلك أثناء فترات النهار، أما في الصباح الباكر وخلال الليل فقد حرص على القيام بأعمال الفلاحة في الحقول.

بعد مرور سنتين ماتت أمه "طومي" وصار يعيش بمفرده مع جدته العجوز، وأخذ أحياناً يغادر قريته ليعمل باليومية في المنطقة الوسطى بالجزيرة التي نشطت بها أعمال المنشآت في القواعد العسكرية الأمريكية، وأحياناً أخرى كان يقوم بأعمال الطلاء في العاصمة "نهي"، ولكنه في كل مرة لم يكن يستمر طويلاً في موقعه.

بعد أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره عاد ليستقر في القرية لتكوين بعض القوارب من مخلفات صفائح البنزين الفارغة والخاصة بالطائرات الأمريكية، وهي قوارب بدائية تجدف بالأذرع، وأحياناً أخرى كان يقوم بالنقاط الأسماك المختبئة في الوحل في الحقول ثم يبيعهما في السوق ويقتات منها. وعندما بلغ السابعة والعشرين تعرف على "أوشي" التي كانت تعمل بتجارة السمك وتزوج بها، لكن فرحة جدته بتلك الزيجة لم تستمر طويلاً. لقد كانت "أوشي" تكبره بسنتين، ورغم تسلطها وجبروتها، إلا أنها مروءة وشهامة، فظلت تنفاني في خدمة الجدة وتقوم على رعايتها والاهتمام بها لمدة ثلاث سنوات حتى ماتت الجدة. أجل.. لقد كانت تحنو عليها أكثر من أمها الحقيقية.

بعد ذلك صارت "أوشي" تتردد على مستشفى القرية ظناً منها أن سبب عدم الإنجاب راجع إليها، وكانت تفعل ذلك تحت غطاء من السرية. لكن ما دفع "طوكوشوه" إلى الإدمان في شراب الخمر كان سبباً مختلفاً، ففي مراسم الذكرى الأربعين لوفاة الجدة سمع النسوة العجائز يتحدثن بامر "مياغي سينسوقو".

كان "طوكوشوه" تلك الليلة المشثومة حين وصل بعد جهد شاق إلى مغارات التمريض بمنطقة "إيطومان" وجد تلك المغارة قد دمرت عن آخرها بواسطة الجنود الذين هبطوا عليها، ومنذ تلك اللحظة لم

يكن أحد يعرف المصير الذي واجهته "سيتسوقو" وأولهم "طوكوشوه" الذي واصل الهروب هائماً على وجهه حتى حوضر عند ساحل "مابوني" بالطرف الجنوبي للجزيرة.

الحقيقة أن "سيتسوقو" كانت قبل ذلك بيوم واحد قد سلكت ذلك الطريق نفسه متوجهة إلى نفس المكان، وكانت قد انتحرت بقنبلة يدوية مع خمس من رفيقاتها الطالبات وسط مجموعة من الصخور لا تبعد مسافة مائتي متر عن حائط صد الأمواج الذي كان يطفو عنده "طوكوشوه" فاقد الوعي بعد ما قذفته بعيداً خلخلة الهواء الناتجة عن انفجار قنبلة من القنابل الأمريكية.

بعد أن رحل الأقارب الضيوف من المعزين عن المكان، ذهب "طوكوشوه" بمفرده إلى شاطئ البحر، وهناك قفزت إلى ذاكرته صورة وجه "سيتسوقو" وهي تتاوله زمزية الماء والخبز الجاف بينما كانت تضع يدها الأخرى فوق كتفه. شعر "طوكوشوه" بإحساس طاغ. مسح "إيشي مينيه" فمه المبتل بخفة بإصبعه السبابة ثم نهض واقفاً.. وهو يبدو في السابعة عشرة.. تماماً مثل يوم أن لقي حتفه!

كانت ترسم ابتسامة غطت شفثيه الحمرابين وصدغيه النحليين وعينيه ذات الأهداب الطويلة، بينما كان يرمق وجه "طوكوشوه" عن قرب، لكن الغضب انفجر من "طوكوشوه" دون سابق إنذار وهو يصيح قائلاً:

"هيهات أن تشعر بمدى الحزن الذي عانيتُ منه طوال تلك الأعوام الخمسين!"

لكن "إيشي مينيه" كان يكتفي بالابتسام وهو يحرق في وجه "طوكوشوه"، وفي اللحظة التالية أوماً "إيشي مينيه" برأسه إيماءة خفيفة

وهو يتابع بناظريه "طوكوشوه" الذي يحاول جاهداً النهوض من رقده. وهنا خرج "إيشي مينييه" عن صمته لأول مرة ليقول بكلمات واضحة المخارج:

"شكراً لك.. لقد استطعت أخيراً إرواء ظمئي!"

ثم انحنى "إيشي مينييه" برأسه وهو مؤدياً التحية بينما كان يكبح جماح ابتسامة عريضة كادت تفلت من ثغرة.

وحتى اختفى "إيشي مينييه" من خلال الحائط لم يحاول الالتفات أبداً ليلقي النظرة الأخيرة على "طوكوشوه"، وفي اللحظة التالية على اختفائه مرقت سحلية زاحفة بسرعة البرق فوق الحائط المتسخ لتلتهم حشرة هناك وتبتلعها في لمح البصر!

ومع أضواء الفجر الأولى ترددت في جنبات القرية النائمة أصداً نواح وبكاء "طوكوشوه".

في ذلك اليوم جاء "سي يوو" مبكراً على غير العادة، فإذا به يراها ترقد وهي تجهش بالبكاء وقد تبللت وسادتها تماماً بدموعها، وهو الأمر الذي أدهشه كثيراً، فلم يحدث أبداً أن رأى دموعها من قبل، وقد جعله هذا يظن للوهلة الأولى أن "طوكوشوه" قد مات أخيراً بعد تلك الرحلة الطويلة من العذاب، لكنه عندما أدار وجهه في تردد وخوف لينظر إلى وجه "طوكوشوه" الراقد في الناحية الأخرى على فراشه وجد عينيه مفتوحتين عن آخرهما وهو يحرق به!

"لقد شفيت!"

بعد أن نطق "طوكوشوه" بهاتين الكلمتين وقد ارتسمت على وجهه ذي الذنق الأشقر غير الحليق ابتسامة عريضة أظهرت تجاعيده كلها.. عاد ليغمض عينيه تماماً.

نظر "سي يوو" إلى قدمه تلك ففوجئ أن الورم قد زال تماماً وأن قطرات الماء قد توقفت! وهناك في الدلو كانت كمية بسيطة من الماء لا يتعدى سمكها سنتيمتراً واحداً، وفوق صفحة الماء كانت هناك حشرة صغيرة مجنحة طافية بلا حراك.

عندما شرع "سي يوو" في مغادرة الغرفة بخطى خفيفة حتى لا يلاحظه أحد، نادته "أوشي" واستوقفته.

في اللحظة نفسها سال العرق البارد على وجهه وهو ينتفت ناحيتها في تردد وبطء، فاقتربت منه "أوشي" بوجهها المبلل بالدموع دون أن تمسحه، ثم أمسكته من يده بقوة وهو الذي كان ينوي الهروب من المكان.

"إني أشرك.. فبفضلك كتبت لزوجي السلامة".

بعد أن تفوهت "أوشي" بهذه الجملة القصيرة مدت يدها داخل جيبها، ثم أخرجت مطروفاً ورقياً ودسته في يده ثم انحنت له برأسها تحية وامتناناً ابتسم لها "سي يوو" في بشاشة وقال لها:

" سوف أعود لزيارتك فيما بعد".

ثم غادر الغرفة، وبمجرد أن خرج "سي يوو" من البوابة أطلق ساقيه للريح عائداً إلى بيته.

أجل، فلو عرف الناس أن الماء لم يعد يتساقط من إصبع "طوكوشوه" فلن يبق هناك ما يدعوه للبقاء في القرية.

التقط "سي يوو" حقيبة مألها بالنقود وملابسه ثم قام بعمل مكاملة لطلب سيارة أجرة من الهاتف العمومي الموجود أمام متجر الجمعية التعاونية.

وبعد أن جلس على الأريكة الخفية للسيارة الأجرة وتنفس الصعداء تذكر ذلك المظروف الورقي الموجود بجيب منطاله، وحين اختلس نظرة سريعة إلى محتوى المظروف وجد به ثلاث ورقات نقدية من فئة العشرة آلاف ين، لقد كان هذا المبلغ ضرباً من البذخ والإسراف بالنسبة لـ"أوشي".

شعر "سي يوو" في تلك اللحظة بوخز الضمير، لكنه عاد ليقنع نفسه بأنه قام بدوره كما يجب في تريض "طوكوشوه"، وهنا طلب من السائق أن يسرع في الطريق.

كان موعد حجز تذكرة الطائرة بعد أسبوع كامل من ذلك اليوم، وكان ينوي قضاء ذلك الأسبوع الباقي بأحد فنادق العاصمة "ناها".

أخذ "سي يوو" يتحسس الحقيبة بجانبه، فعدا الخمسة ملايين ين السائلة، كانت هناك عشرة ملايين ين أخرى في رصيده في البنك، والحقيقة أن ما كان بتلك الحقيبة لم يكن فقط غياراته الداخلية وذلك المبلغ النقدي، فقد كان يحتفظ هناك أيضاً بأربع قنينات معدنية تحتوي ذلك "الماء"!

أخرج "سي يوو" واحدة من تلك القنينات، وخلط ذلك الماء بالويسكي الذي كان في قنينة صغيرة أخرى، وبعد أن قام برج القنينة تجرع بعضاً من ذلك الخليط، فإذا بالدماء تنشط في جسده وغرائزه الجنسية تتأجج، فأخذ يضحك بصوت عال، وهو يتخيل خطة تلك الرحلة التي كان يحلم بها في الوقت الذي وجه فيه سائق السيارة للذهاب إلى المدينة المجاورة ليقوم بتصفية متجره الكائن هناك.

لكنه فوجئ بجمع غفير من البشر يقفون أمام واجهة متجره، فأغلق على وجه السرعة باب السيارة الذي فتحه له السائق. لقد ظن

في بداية الأمر أن الجميع يصطفون في انتظاره لكي يبيع لهم مزيداً من الماء، وظل لبضع لحظات متردداً: أيغادر السيارة أم ينطلق بعيداً بها؟ حتى فوجئ بجو غريب مثير للتساؤل.

كان كل المجتمعين هناك يلبسون القبعات ونظارات الشمس ويخفون جوههم بالكمامات القماشية الطبية، وكان منهم من يمسك بيده بمضارب البيسبول المعدنية، وعندما فتح فمه كي يطلب من السائق أن يسرع بالمغادرة، انتبه أحدهم لوجود "سي يوو" هناك بداخل السيارة الأجرة، وفي لحظات أحاطت تلك الجموع الغفيرة بالسيارة، وفي اللحظة التالية كانوا قد جذبوه من السيارة وجروه جراً وهو يتشبث بحقيقته.

جلس "سي يوو" القرفصاء على الأرض وهو يحمي رأسه بذراع وبالذراع الأخرى يمسك بالحقيبة بكل قوة، لكن الآخرين حملوه حملاً في الهواء عالياً، فإذا برجل يصيح في أذنيه قائلاً:
"قف على قدميك".

أمام عينيه كان ذلك الرجل يمسك بقنينة زجاجية تبقي في قاعها كمية قليلة من الماء تتأرجح يميناً ويساراً، وفي اللحظة التالية صرخ الرجل قائلاً:

" ما هذا الماء بحق الآلهة ؟

" إنه إنه (الماء المعجزة) ...

ولكن قبل أن ينهي "سي يوو" جملته هذه عاجلته لكمة من كف امرأة تقف إلى جانبه وهي تصيح في حدة قائلة:
"أي معجزة وأي ماء أيها الأخرق؟".

قام بعض المحيطين به بمحاولة إبعاد المرأة، إلا أنها في اللحظة التالية ركلته في قصبه ساقه بكعب حذائها العالي فصرخ "سي يوو" من شدة الألم وانكفأ بحركة تلقائية كي يضع يده على مكان الضربة، لكن رجلاً آخر كان يقف أمامه تماماً أمسكه بقوة من ياقته ورفعته مرة أخرى ثم زعق قائلاً:

"أتعلم ماذا حدث لي بسبب مائك العفن ذلك الذي بعته لي؟ هيا أنظر جيداً".

في اللحظة التالية خلع الرجل كمامته ونظاراته الشمسية وخلع قبعته، فإذا برأسه تنبت به شعيرات تشبه الفطر مثيرة للتقزز، وكان وجهه ملطخاً بالبقع مليئاً بالتجاعيد.

كان الرجل يصرخ ويبكى في هستيريا وهو يقول:
"ماذا ستفعل بي بحق السماء؟".

حين دقق "سي يوو" في وجهه أدرك انه مدرس الثانوى ذلك الذي كان زبونه رقم الثاني.

بعد ذلك أخذ الباقيون تباعاً ينزعون قبعاتهم ونظاراتهم الشمسية وكماماتهم القماشية، وحتى النساء منهم قد سقطت شعورهن تماماً، وكان منهم رجل في الثمانين من عمره تلتخ وجهه تماماً بالبقع والبثور. حين مسح ذلك الرجل العجوز براحة يده على رأسه تساقط شعره كله، وقبل أن ينتهى ذلك الرجل من صرخاته قائلاً:

"أيها الأحمق".

كانت قبضته أسرع من كلماته!

كان وجه "سي يوو" المنعكس على زجاج سيارة الأجرة المشروخ قد تغيرت ملامحه تماماً.

لقد تمزقت أوراق البنكنوت وطار في الهواء مبعثرة هنا وهناك، وعلى الطريق اصطدمت السيارات القادمة تباعاً بعضها ببعض.. فتوقفت حركة المرور، وأسرع الموظفون والعمال الذاهبون لأعمالهم يتجمعون لاستطلاع الأمر.

وسط ضجيج آلات التنبيه وصياح قائدي السيارات الغاضبين، انكفأ "سي يوو" على وجهه وحاول الفرار خلال السيقان المتزاحمة حوله على يديه ورجليه، لكن بعضهم أمسك به من قفاه وألقاه بقوة ليصطدم بالإسفلت، وبعدها انهالت كعوب الأحذية والقبضات المتتالية عليه كنقر الطيور على جسده النحيل المنكمش الذي يشبه فأر الجحور بلا رحمة ولا هوادة.

وسط تلك الضجة الهوجاء انطلقت امرأة عجوز شمطاء شعثاء الشعر يغلب على رأسها الصلع، وتترهل وجنتها ورقبتها، لتتسلق السيارة الأجرة وهي تحمل في يديها ثلاث زمميات، ثم أخذت تسكب الماء على رؤوس جميع المتحلقين حول السيارة وهي تطلق ضحكات هستيرية متواصلة.

خلال ذلك وقعت إحدى القنينات تحت أقدام المتجمهرين وتدرجت حتى سقطت في النهر القريب، وأخذت تعلو وتهبط على صفحة النهر حتى وصلت إلى المصب عند البحر وهي تتلألأ تحت أشعة شمس الصباح بينما هاج وماج الجمع الغفير من الناس وقلبوا سيارة الدورية التي دخلت بينهم لتفريقهم .

بعد مرور عشرة أيام على تلك الأحداث.

كان "طوكوشوه" جالساً في غرفته يراقب حشائش الصيف النابتة في الحديقة الخلفية عبر النافذة المفتوحة.

بعد انقطاع الماء المنسكب من قدمه لم يعد هؤلاء الجنود مرة أخرى لزيارته، ومع ذلك فقد ظل يشعر بالقلق حين يخلد للنوم ليلاً، حتى إنه ظل لمدة ثلاثة أيام متتالية يطلب من زوجته "أوشي" أن تنام على الأرض بجانب فراشه.

لم تكن "أوشي" تفعل ذلك عن رضاء منها، بل كانت تشعر بالامتناع من ذلك. كان "طوكوشوه" يتردد في أن يفضي إليها بأمر "إيشي مينيه" ورفاقه من الجنود حين كانوا يظهرون أمامه كل ليلة لارتشاف الماء، بينما كانت تحكي له الأحداث التي مرت بها القرية خلال رقدته الطويلة على ذلك الفراش ليل نهار تحت ضوء مصباح الغرفة الباهر الذي لم ينطفئ أبداً.

لكنه في النهاية لم يستطع أن يخبرها بهذا السر، كما لو كان يشعر أنه لن يبوح لها يوماً ما بهذا السر أبداً.

في الوقت نفسه فإنه في قرارة نفسه كان ينوي أن يصطحب زوجته ويقوم بزيارة لتلك المغارة يوماً ما بعد أن يستعيد عافيته تماماً.

كان ينوي أن يخبرها فقط أنه كان يختبئ في تلك المغارة أثناء الحرب.. ويكتفي بوضع الزهور والبحث عن بقايا العظام المبعثرة هناك.

رغم اعتزاه القيام بتلك المهمة.. إلا أنه كان يشعر بالتردد في الإقدام على فعل ذلك، ويؤجل تلك الزيارة بحجة أو أخرى، محاولاً التحايل على نفسه وخداع ذاكرته.. في الوقت نفسه الذي كان يتوقع فيه أن ينسى ما حدث بينه وبين "إيشي مينيه" في يوم من الأيام.

عاد ليتجرع خمر الساكويه.. رغم أنه قطع على نفسه عهداً بعدم العودة إليها.

قام "طوكوشوه" ذات يوم بالذهاب إلى بيت "سي يوو" للاطمئنان عليه، فقد ظل الثاني راقدًا ملازمًا فراشه منذ ذلك اليوم الذي أوسعه فيه أهل القرية ضرباً وركلاً، لكنه التقى مصادفة ببعض أصدقائه الذين اعتاد السهر معهم هناك، فذهب معهم لاحتساء الخمر بصحبة "سي يوو".

كان "سي يوو" قد تكسرت عظام ذراعيه الاثنتين، ولذلك فقد جلس يحتسي الخمر معهم وهو يرشفه بأنبوب بلاستيكي لعجزه عن الإمساك بالقدح، وفي نهاية الأمر دارت الخمر برأس "سي يوو" فثمل ونام وهو جالس في مكانه، إلا أن "طوكوشوه" والآخرين استمروا في الصخب واحتساء الخمر، وعندما انتصف الليل بدعوا في لعب القمار بالورق.

في صباح اليوم التالي حين كان "طوكوشوه" ممدداً وغارقاً في النوم خارج بوابة البيت خرجت "أوشي" مبكرة كعادتها لتجده في طريقها، فركلته بقدمها ثم انطلقت نحو الحقل دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

أخذ "طوكوشوه" يتمتم في سريره قائلاً:
"حسناً، سأخرج من الغد إلى الحقل لأواصل العمل".

فكر "طوكوشوه" أن يبدأ بحش الأعشاب البرية النابتة في حديقة المنزل الخلفية كنوع من إعادة الحركة والنشاط إلى جسده، فذهب إلى غرفة المخزن وتناول المنجل ونزل إلى الحديقة.

اندهش من ذلك النمو السريع للحشائش التي وصلت أطوالها إلى خصره تقريباً، فأخذ يتحسس جذور سيقان النباتات والحشائش بشظية

خشبية طويلة خشية أن يفاجأ بثعبان أو حنش ما يختبئ هنا أو هناك، ففوجئ في لحظة ما بطرف العصا تصطدم بجسم صلب ما بين الحشائش، أخذ يفسح الحشائش المتكاثفة وهو يتقدم في حذر خلالها، ففوجئ بوجود قطعة ضخمة من ثمار القرع العسلي يعجز عن حملها وحده تقبع هناك تحت شجيرات سياج الحديقة. كانت تلمع تحت أشعة الشمس بقشرتها الخضراء النضرة الغامقة، وكانت تثبت منها شعيرات قصيرة متباعدة، فاندesh "طوكوشوه" من شكلها وشهق بعمق، وحين ركلها بقدمه لم تتحرك من مكانها قيد أنملة.

من طرف تلك الثمرة الكبيرة كانت هناك زائدة بارزة في حجم إصبع القدم الكبير، وكانت تلك الزائدة محشورة تحت شجيرات السياج، وعند طرف تلك الزائدة كانت هناك زهرة صفراء نابئة تتمايل تحت السماء الصافية الزرقاء، ومن فرط وهج تلك الزهرة الصفراء انكشمت عينا "طوكوشوه" فرفع ذراعه بحركة عفوية ليحجب عنهما ذلك الوهج الباهر!

انتهت

صوت الريح

FUON

كان الرفيق "شين" أول من صرخ في البداية قائلاً "هل تستطيعون تسلق هذا؟" لكن.. بالرغم من أنه كان صاحب الفكرة إلا أنه تراجع عن التسلق، أما "أكيرا" ورفاقه الآخرون فقد ظلوا يضحكون سخريّة من "شين"، ولم يجرؤ أي واحد منهم على لفظ كلمة "التسلق" هذه، بينما كانت عيونهم معلقة إلى أعلى ذلك الجرف الشاهق الذي كان يبدو أقرب ما يكون إلى زاوية قائمة.

كان ذلك الجرف الشاهق الممتد بعرض الساحل قد تعرت واجهته الصخرية البنية المصفرة اللون، ولا تزال محفورة بطوله آثار قصف مدفعية الأسطول الأمريكي. مطلاً على مصب نهر "إي غامي غاوا" وهو النهر الذي كان ينساب في وسط القرية. وفي بقعة ما من بطن ذلك الجرف، كانت هناك شجرة ضخمة تتمدد فروعها وأغصانها على شكل مروحة كبيرة مفتوحة، بينما ظهرت جذورها الطويلة النحيلة المتفرعة طويلاً وعرضاً، والبارزة فوق سطح الصخور، وكأنها سيقان عنكبوت كبير، أو أطراف نجم البحر، أما أوراق تلك الشجرة الوارفة الداكنة الخضراء، والتي تستحم بشعاع الشمس القوي، فقد كانت تبدو متألّنة زاهية وسط السماء الصافية الزرقاء التي سكنت بها الريح تماماً. وكانت الثمار المدلاة من فروع هذه الشجرة كثيفة متداخلة تشبه شعر جسم دمية الأسد الضخمة التي كانت تستخدم في احتفالات القرية، وتمتد تلك الثمار والفروع وكأنها تتشمم في سكون تلك الرائحة

الحمضية للتربة الزلقة الرخوة التي تكونت من الأوراق الذابلة المتعفنة عند سفح الجرف، وهناك، وحول تلك الثمار، كانت تلتف وتتشابك براعم زهور "وجه الظهر" المنداة التي كانت تلمع تحت أشعة الشمس. وهكذا كانت تلك الخضرة الزاهية الطاغية التي بدت مثل فيضان كبير تأخذ أبصار "أكيرا" الذي يقف مشدوهاً بتلك الطاقة الطاغية للحياة والطبيعة.. في الوقت نفسه يشخص ببصره إلى ذلك التجويف المربع الفاجر فاهه بين شلالات تلك الثمار والزهور.

كان التجويف لمقبرة جماعية في سالف الزمن، لكن أحداً من أهل القرية الكبار السن لم يكن يعلم على وجه الدقة ظروف بدايتها أو تاريخها. يتناقل عجائز القرية حكايات هذه المقبرة في استثارة ملحوظة ويقولون إنه إذا وضعت جثة ما هناك فإن الطيور وسرطانات البحر وحشرات الشاطئ، وكذلك الرياح الآتية من البحر تأتي وتأكلها وتترك عظامها بيضاء نظيفة لامعة، كان "أكيرا" يستعيد ذكريات تلك الأحاديث وهو يتخيل نفسه يكتشف هيكل عظيمًا متلاًئلاً تحت أشعة الشمس، وقد ظهر نصفه خالياً من رمال الشاطئ البيضاء. لقد كان ما يتماه "أكيرا" أن يشاهد بعينه ولو لمرة واحدة مثل هذا المنظر. لكن المقبرة تكاد الآن تختفي في ظل زهور "وجه الظهر" وفروع الشجرة الوارفة المتكاثفة.

قبل أن تتدلح الحرب، كانت هناك درجات حجرية محفورة قوية متينة تمتد بطول الجرف، ويستطيع الناس بفضلها تسلق الجرف حتى قمته.

في ذلك العهد كان عدد من أهل القرية يقومون بحمل النعوش على أكتافهم لتشييع من يغادرون هذه الدنيا إلى العالم الآخر. لكن

مدفعية الأسطول الأمريكي نسفت الدرجات الحجرية، كما أن مشاة البحرية الذين نزلوا على الشاطئ خلعوا ما تبقى منها واستخدموها في بناء قواعدهم العسكرية.

بعد انتهاء معركة "أوكيناوا"، كان كل ما يشغل أهالي القرية الذين خرجوا من جحورهم، زاحفين مثل قطعان سرطان البحر خلال الغابات والجبال، هو حماية أرواحهم والنجاة بأعمارهم، ولم يكن يهمهم أمر تلك الدرجات الحجرية من قريب أو بعيد.

وبعد مرور بعض الوقت بدأت حياة القرية اليومية تعود إلى طبيعتها شيئاً فشيئاً، لكن أحداً لم يَقم بإعادة بناء تلك الدرجات الحجرية.

وهكذا انعدمت الحيل في سبيل الصعود نحو تلك المقبرة الجماعية الطبيعية، وظلت تختفي مع الزمن تدريجياً تحت أغصان تلك الشجرة الضخمة التي نبتت من خلال شقوق الصخور. لكن ذلك لا يعني أن أهل القرية نسوا أمر تلك المقبرة، على العكس، أخذوا يهتمون بذلك المكان بشكل مختلف عما كانوا يهتمون به من قبل.

أخذ "أكيرا" ورفاقه يحدقون بأبصارهم، وهم يتأملون تلك الكتلة البيضاء غير الواضحة المعالم، التي ظهرت طافيةً وسط ذلك الفراغ المعتم.

كانت تلك الكتلة عبارة عن جمجمة قديمة استقرت في مكان ظاهر ملحوظ، عند مدخل المقبرة الجماعية الموجودة في العراء، وكأنها وضعت عن عمد في ذلك المكان. تجويفا العينين الغائرتين السوداوين يظهران كما لو كانا طوال هذه السنين يراقبان البحر المتسع على امتداده حتى خط الأفق.

كانت الموجات المتتابعة الصغيرة على صفحة ماء النهر، تلوح للعين من هذا المكان، بينما النهر يمضي لينتهي في البحر عند مصبه الهادئ الساكن.

كانت الريح الخفيفة التي تهب فوق أسراب السمك الصغير المتجه نحو أعالي النهر تدغدغ الموج المتلألئ في هدوء تحت أشعة الشمس.

ووسط تلك الدقائق التي كانت تمر بطيئة هادئة بينما تتطلق الطيور ذات الألوان الزاهية تقطع السماء الزرقاء، وتتمايل الأوراق الصغيرة الصفراء للأشجار مع الريح الخفيفة، وتراود الأذان أصوات زقزقة حشرات الجراد الأسود من بعيد، وينساب من مكان ما صوت شجن حزين يشبه صوت الناي! .. حبس "أكيرا" وزملاؤه أنفاسهم بينما كانوا يحدقون في تلك الكتلة البيضاء المسجاة أمام أعينهم، كان الصوت الغريب صادراً عن تلك الجمجمة!

لم يكن أحد يهمس بتلك المهمة التي تبدو وكأنها تنطق بكلمة "مبجل. مبجل!" كان صوت الريح عالياً وأحياناً خفيفاً، ويروم بعرض سفح ذلك الجرف المظلم، ذلك السفح النحيف مثل أضواء حشرة "اليراعة" فيخترق طبلة أن "أكيرا" ورفاقه ليستقر في أعماق صدورهم، ويذوب خلال الماء البارد الأسن المتجمع تحت جذور الأشجار العجوز، عادة حين كانت تُسمع أصوات الرياح وصفيرها، كان كل من يمر بهذا الجرف يحاول جاهداً مغالبة الرعب الذي يجتاح قلبه، ويسير حذراً بخطى متسللة لا تصدر صوتاً ليغادر المكان.. وبعد السير لمسافة ما يبدأ الجميع في الركض هرباً وتعلو صرخاتهم، لكن الأمر اليوم كان مختلفاً.. فلم يكن يبدو أن أيّاً منهم يزمع الهرب والمغادرة.

من بين الرفاق هناك من لم يحتمل ذلك الجو المقبض، فزفر زفرة عميقة، وكأنما كان ذلك الصوت إشارة منفق عليها، حيث تبادل الجميع في نفس اللحظة النظر، وعادوا ليحدقوا في مصدر صوت الصفير.

كان يُشاع أن الصوت يصدر عندما تمر الريح التي تأتي عابرةً من ناحية البحر، خلال تجويف عيون الجماجم فيتردد صدى الريح خلال فراغات الجمجمة الداخلية، ولكن لم يكن هناك من يجروء على التأكد من تلك الأقاويل بنفسه.

حتى شباب هذه القرية الذين اشتهروا بطبيعتهم الغليظة الجسورة، لم يقدم أي منهم على إظهار شجاعته والحضور إلى هنا للتأكد من تلك المقولة.

اندهش "أكيرا" من نفسه حين خرجت منه الكلمات التالية:

"ألا نتأكد بأنفسنا من مصدر هذا الصوت؟"

وفي لحظة اعترت تعبيرات الخوف والاقتراب وجوه الرفاق.

من بين مجموعة الشباب كان هناك شاب يدعى "أوسامو"، ويعتبره الجميع في مرتبة قائد المجموعة، حتى هذا الشاب الجسور بدا مرتبكا متخوفا من اهتزاز اعتزازه بنفسه حين قال ضاحكا لـ "أكيرا" وهو يشير إليه بطرف أنفه:

"هل تستطيع أنت القيام بتلك المهمة؟"

وهنا سحب "أكيرا" قنينة "المايونيز" الكبيرة التي كان يحشرها تحت إبطه، ورفعها أمام وجه "أوسامو". كان يبدو من خلال الزجاج الشفاف داخل القنينة سمكة من نوع الـ"تيرابيا" في حجم قبضة يد رجل بالغ اصطادها "أكيرا" لتوه من البحر، وقد ظهرت من خلال

تغير الزجاجة السفلي أكبر من حجمها وهي تدور بنظراتها بالتبادل بين وجهي "أكيرا" و"أوسامو".

بدر "أوسامو" رفيقه يرد عليه، وهو ينظر إلى القنينة:

"يمكنك أن تضع هذه بجوار تلك الجمجمة ثم العودة إلى هنا!"

يبدو أن مزحة "أوسامو" هذه لم تحظ بإعجاب رفاقه الذين رمقوه بنظرات الازدراء، فعقب "أكيرا" بعد لحظات من التفكير:

"مقابل هذا، هل تأت أنت يا "أوسامو" إلى هنا لإحضار تلك الزجاجة؟"

امتعض وجه "أوسامو" في نفس اللحظة التي سمع فيها كلمات "أكيرا"، ولكنه لم يجد مناصاً من أن يومئ برأسه بدليل الموافقة على ذلك الشرط الغريب، بينما تسمر في مكانه بسبب نظرات "أكيرا" وسمكة الـ "تيرايبيا" المتفحصة الموجهة نحوه!"

ثم استطرد "أكيرا" بسرعة وهو يدور بعيونه بين وجوه رفاقه:

"حسناً.. دعونا نراهن على بقاء سمكة الـ "تيرايبيا" هذه حية أم

لا داخل هذه الزجاجة المملوءة بالماء بعد أسبوع من الآن!"

ودون أن يتيح "أكيرا" للأخرين فرصة للتفكير في الرد، انطلق يعدو حاملاً تلك القنينة صوب أسفل الجرف، وأمسك بقبضتيه حزمة من أفرع نبات زهرة "وجه الظهر" وبدأ يتسلق في سرعة وحيوية.

وحين انتبه رفاقه إلى ما حدث، بدأوا في الصياح وحثوه على العودة والتراجع، لكن "أكيرا" كان في هذه اللحظة قد تسلق الجرف بالفعل، صاعداً لمسافة خمسة أمتار تقريباً، يتأرجح ويتلوى بجسده مثل أسماك النهر التي تسبح في سرعة وقوة عكس التيار السريع، في نفس

الوقت الذي كانت تتساقط فيه قطرات الماء فوق وجوه "اوسامو" ورفاقه من خلال فتحة القنينة التي حشرها "أكيرا" تحت إبطه.

وبعد أن تسلق "أكيرا" مسافة عشرة أمتار تقريباً، شعر أن قواه قد خارت، ولكنه حرص في سريرته على ألا ينظر إلي أسفل مطلقاً، وقام بلف ساقه حول حزمة أعواد النباتات التي أستخدمها بديلاً للحبال، جاهداً في التثبيت بها، وعدم السقوط.

شعر "أكيرا" بطعم عرقه المر الذي يتصبب من وجهه، يتسرب إلى داخل فمه، أحس بالرغبة في القيء من شدة ذلك الطعم وتلك الرائحة النفاذة، وفي نفس الوقت انتاب الذعر سمكة "التيرايبيا" المحبوسة بالقنينة، فأخذت تقفز وتتلوى بشكل هستيري في جميع الاتجاهات، وتنفث الزبد والفقاعات في وجه "أكيرا"، أما تلك القنينة المبتلة الزلقة فقد أخذت تهتز بشدة تحت نراع "أكيرا" الذي هرب الدم منه وصار أصفر شاحباً، وأخذ الماء داخله يتدافع في أمواج متلاحقة.

في تلك اللحظات لم يعد يدرك "أكيرا" نفسه، السبب الذي دفعه إلى ذكر تلك الكلمات، بينما كان واضحاً الصعوبة البالغة التي يعانيها "أكيرا" وهو يحاول جاهداً استخدام ذراعيه في التسلق.

أغمض "أكيرا" عينيه وهو يستشعر ذلك النهر الهادر الذي يجري داخل جسده وهو يزمجر عالياً.

تدفقت الدماء داخل عروقه مثل الفيضان لتزيد من نبضاته، لكن تلك الدماء لم تكن تضخ خلال ذراعيه!

خارت قوى ذراعه الأيمن المتشبث بحزمة أعواد نبات زهرة "وجه الظهر"، فأخذ جسده يرتعش وبدأ يصدر صرخة قصيرة مكتومة.

هبت في تلك اللحظة ريح مفاجئة ناحية البحر، فصارت تلك الريح تهاجم ظهر "أكيرا" المتصلب، ووقف شعر رأسه إلى أعلى. أخذت أوراق عيدان زهور "وجه الظهر" ترفرف مع خبط الريح بها، وعاد صوت الصفير الشجن الحزين يسمع من مكان قريب للغاية، وسط صوت حفيف أوراق الشجر الصاخب.

حين فتح "أكيرا" عينيه، بعد أن ظلنا مغمضتين للحظات فوجئ بعيني سمكة "التيرايبيا" مسلطتين نحوه!، شعر في هذه اللحظة بأن شعر جسده كله قد انتصب، فاستجمع كل قواه لكي يكمل صعود المسافة الباقية دفعة واحدة دون توقف.

لم يكن يستطيع بوضعه هذا أن يمسح عرقه المتصيب، فأخذت جفونه ترمش في عصبية في حركة لا إرادية لمقاومة العرق المتسلسل إلى داخل عينيه، لكنه في الوقت نفسه بدأ يحدد بوضوح ملامح تلك الكتلة البيضاء، بعد أن كانت تشوبها هالة من الضوء المضرب، وكانت تفتح وجهه ريح باردة تندفع من خلال تجويفين عبر الصخور.

كانت تلك المقبرة المقامة في العراء قد أقيمت هناك باستغلال التجاويف التي صنعتها الطبيعة في الجرف. المدخل إلى تلك المغارة يمتد طوليا بشكل منسق مستقيم، وكانت هناك أحجار طبيعية بارزة من خلال سقف المغارة، باقية دون أن تتآكل بفعل الريح وعوامل التعرية. لم يكن ذلك العمق يزيد عن متر واحد والرمال التي تفرش أرضية المغارة الصغيرة باردة دقيقة تحوّل لونها مع مرور الزمن من الأبيض إلى الرمادي.

أحس "أكيرا" وكأن الرمال امتصت الحرارة التي تعترى جسده، فراوده شعور غريب باللذة، كما لو كانت دماؤه تمر بعملية تطهير!

وحين أخذ نفساً عميقاً كي يمنع نفسه من الدخول في غيبوبة بسبب ذلك الشعور بالانتشاء، لمح في تلك اللحظة عدداً لا يحصى من الشعاب المرجانية المتكلسة الصغيرة، تبرز برؤوسها خلال الرمال البيضاء، بحيث يصعب على المرء تمييزها من النظرة الأولى. لكنه في اللحظة التالية أدرك أن تلك الشعاب المتكلسة البيضاء ليست إلا عظاماً بيضاء نظيفة ناصعة لجثة ما غسلتها الأمطار والرياح المتعاقبة على مدى عشرات السنوات، وأزاحت عنها الأوساخ العالقة، جذب أنظار "أكيرا" من بين مواضع ذلك الهيكل العظمي جزء عظام ضلوع الصدر، التي ظهر نصفها العلوي بارزاً في الرمال، وفي نهاية تلك المغارة الضيقة لمح قطعاً صغيرة من قماش مهترئ ضاع لونه الأصلي، أدرك بالكاد من ملامحه الباقية أنه لزي عسكري! أما ما كانت ملامحه الأصلية باقية من بقايا متعلقات صاحب تلك الجثة فكان ذلك الكعب السميك المطاطي الأسود، المتبقي عن حذاء عسكري.

أدرك "أكيرا" من وضع عظام الصدر تلك، أن صاحب تلك الجثة مات منكفئاً على وجهه، فصار في اللحظة التالية يتفحص بعينه عظام تلك الجمجمة تلقائياً ودون دافع معين. أدرك بحدسه أن شخصاً ما في وقت ما نقل تلك الجثة من مكانها الأصلي الذي ماتت به، ووضعها فوق تلك الأرضية الحجرية المغطاة ببعض الرمال داخل المغارة، بدلاً من أن تغطيها الرمال المتساقطة عند فتحة المغارة.

كان تجويفا العينين الغائرتين المظلمتين بتلك الجمجمة، يبدو أن كما لو كانا يتأملان صفحة البحر العريضة من هذا المكان، وكان الضوء المنعكس عن صفي الأسنان المطبقين على بعضهما، يعطي الشعور ببقايا الحياة في تلك الجثة، لكنه في الوقت نفسه يعطي شعوراً لـ"أكيرا" بالرغبة والانقباض.

إرتكز "أكيرا" بظهره إلى حائط الجرف، واستند بعضده على الحجر، ثم قام بتثبيت القنينة بدفساها بين ركبتيه، ثم قبض بيده على فوهتها. شعر وهو يحاول فتح غطاء القنينة وكأنه يسمع صوت فرقة عضلات ذراعه المشدودة المتصلبة تدوي في أذنيه، فضغط على أسنانه لمغالبة الألم، في نفس الوقت الذي مد فيه ذراعه الأخرى ناحية الجمجمة.

كان الماء داخل الزجاجاة قد انخفض إلى النصف تقريبا، ورغم قلة الكمية إلا أنه كان يشعر أنها ثقيلة وكأنها كمية من الزئبق، إلى درجة أنه أحس كما لو ان ذراعه على وشك الانفصال تماما من موضع مفاصل الكتف.

كانت سمكة الـ"تيرايبيا" داخل القنينة تنتفس بسرعة في عناء ظاهر، ومن خلال زعانف الرأس التي كانت تتفتح وتتغلق مع كل نفس يخرج، استطاع "أكيرا" أن يلمح لون الدم بداخل تلك الزعانف، وقد استحال إلى أسود غامق، بينما ظهر ذلك الجزء الداخلى من الزعانف في شكل هلالى يلوح ويختفي.

كانت سمكة "تيرايبيا" قد انكشفت في ركن الزجاجاة وقد جحظت عيناها وتحملق في وجه "أكيرا"، ولما لم يستطع "أكيرا" إطالة النظر فيهما أشاح بوجهه هربا منهما لينظر ناحية الجمجمة. لكنه في اللحظة التالية لاحظ من خلال تلك القنينة الشفافة أن على الصخرة فتحة صغيرة تسمح بدخول إصبع يد واحدة، ولكن بعد ذلك بلحظة أخرى اختفت تلك الفتحة تحت عين السمكة التي بدت أكبر من حجمها بسبب تعبير الزجاجاة.

كانت يده تحت قعر القنينة تسندها، فشرع من خلال تلك اليد بصلاصة الصخرة، وحاول بكل طاقته أن يسحب أصابعه المتجمدة المتصلبة من تحت قاع القنينة كي يستطلع أمر تلك الفتحة الصغيرة. وفي اللحظة التي ظن فيها أنه نجح في سحب كل أصابعه المحشورة بين قاع القنينة وسطح الصخرة، وشرع في جذب ذراعه إلى الخارج، فوجئ بأن إصبعيه الأوسط والكبير كانا لا يزالان محشورين هناك!

أخذ "أكيرا" يحاول عشوائيا وبكل طاقته المتبقية في جسده المنهك أن يخلص إصبعيه المحشورين هناك، وعندما نجح أخيرا في تخليصهما بعد أن فقد الإحساس بهما تماما بسبب هروب الدماء منهما، نتيجة لرد الفعل اللا إرادي من الجذب المفاجئ العنيف لذراعه إلى الخارج... مالت القنينة على جانبها لتستند إلى الجمجمة، ولم تسقط على الأرض.

كرد فعل لا إرادي أيضا أخذ ذيل السمكة يخبط في اضطراب وعشوائية بسطح الماء داخل القنينة، فتطايرت قطرات كثيرة من الماء اندفعت من خلال فتحة القنينة لتبلل الجمجمة. في اللحظة التالية برزت مخالب حادة على حين فجأة من خلال التجويف الغائر للعين وأخذت تتبش في هستيريا واضحة بحواف عظام تلك العين. وسط ذهول "أكيرا" من تلك المفاجأة. برز من خلال تلك الفتحة سرطان البحر (كابوريا) يحرك عينيه في ذعر وذهول يمنة ويسرى بنصف جسده الأمامي، بينما وضع أحد أقدامه الأمامية أمام صدره، وكان لون سرطان البحر بنفسجياً مائلاً للزرقة.

ولم يكن ذلك السرطان البحري وحده، فقد برز في نفس هذه اللحظة عدد من سرطانات البحر، من خلال الصخور المنتشرة داخل

المغارة تتحرك في ببطء تجاه "أكيرا" وتلوح بأقدامها ومخالبها الأمامية البنفسجية والحمراء.. وفجأة.. ظهر أحدها زاحفا بسرعة كبيرة فوق الرمال مقترباً من "أكيرا".

برد فعل عكسي سريع حاول "أكيرا" الابتعاد عن الصخرة التي كان يسند إليها عضده، فسقط من حافة الجرف رأسيا لتلتقطه أعواد زهور "وجه الظهر" المتدللية الطويلة المتكاثفة لينحسبر بينها.

أصيب "أوسامو" ورفاقه بالذعر والهلع وهم يشاهدونه من أسفل الجرف يسقط، ففردوا جميعا أذرعهم بحركة تلقائية محاولين تأقف جسده الذي يوشك على السقوط. لم تتحمل أعواد الزهور وزن جسده فهوى مندفعاً بقوة ناحية أسفل الجرف، واخترق جسده الثقل المندفع أذرع زملائه الهزيلة الممتدة، ليرتطم بأرض الشاطئ التي غطتها طبقة رخوة من أوراق الأشجار المكومة الرطبة المتعفنة، واستقر هناك طريحا على ظهره وسط عشب الصيف الكثيف المتشابك.

انقلب "أكيرا" في اللحظة التالية على وجهه وهو يلوي جسده ويتأوه، أخذ رفاقه ينظرون إلى بعضهم، ملتاعين، دون أن يجرؤ أي منهم على أن يمد يده ليلمسه. بادر "أوسامو" قبل رفاقه إلى مد ذراعيه كي يساعد "أكيرا" على النهوض بينما كان صوت رفيقه "شين" الملتاع يكاد يبكي، يدوي في أذنه:

"يجب أن نحمله إلى المستشفى على الفور!"

في اللحظة التالية، فوجئ "أوسامو" بلطمة قوية تهوي على وجهه فتزيحه جانبا! لقد كانت ذراع "أكيرا" الذي انتفض مذعورا ملتاعا وهو يخطب بيديه عشوائيا في الهواء، وكأنه طائر مذعور يلوذ بالفرار، ثم انطلق في اللحظة التالية يعدو بعيدا زائغ العينين، وسط نظرات ذهول زملائه.

انطلق الرفاق يركضون خلفه كي يلحقوا به. شعر الجميع وهم يركضون خلفه وكأن قوى خفية قد تدفقت حول أقدامهم وتعيقهم. نعم لقد صارت الحشائش الكثيفة المدبية تنحرف في عضلات سيقانهم الخلفية البارزة النحيلة، فتوسعهم تجريحا وتخديشا.

كان حفيف الأعشاب البرية العالي الصوت الناتج عن احتكاكه سيقانهم يبعث شعورا بالرعب والانقباض، صار "أوسامو" ورفاقه يتمتمون بتعاويذ سحرية ليطردوا عنهم تلك الشياطين والمردة التي تحاول شدهم من أرجلهم، وظلوا هكذا حتى مرقوا من الأعشاب البرية وارتقوا ذلك الجسر المعلق المفرد فوق المجرى الرئيسي لنهر "إيري غامي غاوا"!

صاح "أوسامو" بصوت عال مناديا "أكيرا" - الذي سبقهم بمسافة إلى الأمام لكي يحثه على التوقف. لكن شبح "أكيرا" الذي كان يلوح هناك لم يلتفت للخلف.. بل اختفى عن أنظار رفاقه.

كانت حواف جبل "أطوها ياما" الانسيابية قد بدأت تزمجر تماما مثل هدير البحر!

كانت الأمطار الكثيفة التي لم تنقطع عن الهطول منذ عدة أيام مضت قد صارت تشكل سيلا جارفا يتخلل الأشجار المتداخلة المتكاثفة التي تفتersh بطون ذلك الجبل، وتنفث منها رائحة العطن النفاذة لتلك الغابة المظلمة المقبضة كي يتشبع الهواء كله بتلك الرائحة.

مع مرور الأيام، صارت تلك الغابة تكتسي بالأوراق الخضراء الجديدة، وتغيرت ملامح الجبل وصار يبدو وكأنه يقترب بخطوات حثيثة ليجتاح القرية الجائمة تحت سفحه.

بعد أن أنهى "كيوكيتشي" وجبة غدائه نزل إلى حديقة منزله عبر الشرفة المفتوحة على درجات السلم، وقد انكشفت عيناه بتأثير ضوء الشمس المبهر الذي ظهر أخيرا بعد عدة أيام من الغيوم المستمرة.

كانت الغابة المتكاثفة الأشجار تحيط بالبيت من كل الجوانب، وكانت هناك زهور بيضاء صغيرة، تنتشح بلون أخضر باهت تبرز برؤوسها على مدى البصر حول البيت من خلال أوراق الأشجار الخضراء المتراحمة لتلك الأشجار في بداية الصيف معلنة بدايته، وكانت الثمار الصغيرة الناضجة الصفراء، تنفث عبقها النفاذ في وقت متزامن مع نفتح تلك الزهور، كي تجذب إليها أسرابا من الوطاويط تملأ الفضاء بصياحها الصاخب.

وقف "كيوكيتشي" أمام البوابة المفتوحة المطلة باتجاه الجنوب، وبينما كان يتأمل بناظره جبل "أطوها ياما" الذي اعتاد رؤيته منذ أن وعي على هذه الدنيا، تذكر على حين فجأة مشهد أمه وهي تلهث، صاعدة ذلك الجبل وسط القصف العنيف المركز، وهي تحمل على ظهرها أخته الصغرى التي كانت طفلة في ذلك الوقت، وفي تلك القرية كان الناس يطلقون كلمة "أوبا" للتعبير عن الحمل على الظهر.

قد تكون كلمة "أوبا" هذه قد أطلقت كتسمية لهذا الجبل منذ زمن بعيد، لتكون جبل "أوبا" بدلا من النطق الصحيح، وهو "أطوها"، لكن أغلب الظن أن هذه التسمية صارت واضحة وشائعة نسبة إلى قيام الكثير من الأهالي بحمل أطفالهم الصغار، وذويهم من العجائز غير القادرين على السير فوق ظهورهم أثناء معركة "اوكيناوا"، تذكر أحداث تلك الليلة حين صار يطمئن أخته الصغيرة ويبعث الشجاعة في قلبها بينما كانت تدفس رأسها الصغير وهي تكتم صوت بكائها في

ظهر أمها التي هددتها قائلة بأن عفريت الجبل الذي يستيقظ في الليل يصغي بأذنيه جيداً، وهو مختبئ بين الصخور ليقوم بمهاجمة أي إنسان يسمع صوته وهو يمر بالجبل!

كان "كيوكيتشي" يكبر "أكيرا" بسنتين أو ثلاث وقت تلك المعركة، ولكن جسده كان ضئيلاً جداً مقارنة به.

كان نفس الفصل من السنة حين وقعت تلك الأحداث، كان هناك طابور طويل من أهالي القرية يصعدون الجبل، وعلى ظهورهم تبدو من بعيد ظلال بارزة لهؤلاء الأطفال والعجائز يشقون طريقهم وسط أعماق الأشجار المتكاثفة، ويتذكر "كيوكيتشي" أحداث تلك الليلة وكأنها وقعت بالأمس.

رغم أن أربعين عاماً كاملة مرت على تلك الأحداث فقد كان يتذكر كل شيء بالتفصيل، بل إنه صار في الفترة الأخيرة يستعيد بعض التفاصيل الدقيقة التي كان قد نسيها خلال تلك السنوات الطويلة، فقد تذكر بعض الأماكن المحددة التي مر بها تلك الليلة.

كان "كيوكيتشي" قد خلع ثياب الفلاحة، ليصير بقميصه الداخلي، وهو يبدأ قطع الأعشاب الطويلة بالمنجل، ويجلس تحت مظلة بوابة البيت بعد العصر.

شعر على حين فجأة بظل شخص يقترب خلفه، وحين التفت ليستطلع الأمر رأى رجلين يقفان أمام البوابة وهما يراقبان وهو يقوم بعمله.

أدرك من النظرة الأولى إحساسهما بالقيظ والإنهاك من خلال العرق الذي كان يتصبب من جبهتهما، وحين رمق سيقانها العارية

الخالية من الشعر التي نفتحها الشمس، والتي كانت تبرز من سراويلهم القصيرة، أحس بان هذين الرجلين ربما يكونان من اليابان الأم، وليس من أهل الجزيرة.

بادره أحدهما:

"عفوًا.. دخلنا هذا المكان دون ان نستأذن منك، غير أننا رفعنا أصواتنا بالتحية عند الباب".

كان الرجل يبدو شابا صغيرا في العقد الثالث من عمره، واصغر من رفيقه، وكان قد نزع الفوطة اللبنية اللون التي كان يلفها حول رأسه، ومسح بها العرق المتصعب من جبهته ورقبته وهو يوميء برأسه إيحاء خفيفة كتعبير عن التحية.

قطب "كيوكيتشي" عن جبينه، في حركة تتم عن عدم شعوره بالارتياح، وتجاهل الشاب الصغير، محولا ناظريه ناحية الرجل الكبير الذي يرافقه.

أدرك من النظرة الأولى لذلك الرجل، ومن شعره الممتزج بالشيب وملامحه المتزنة الهادئة انه في منتصف العقد السادس من العمر.

كان البريق الخافت للأهداب السفلى لعينه يثير الإحساس بمدى الإجهاد الكبير الذي يعانى منه.

بعد أن ابتسم الرجل ابتسامة أنفرج عنها ثغره بأسنانه التي تخللتها إفرازات سوداء تكلست هناك، مد يده إلى جيب صديريته وأخرج بطاقة صغيرة تحمل اسمه وهويته وقدمها إلى "كيوكيتشي".

مال "كيوكيتشي" بجسده إلى الجانب وهو في وضع الجلوس بينما أخذ يحدق في محتويات البطاقة، فوقعت عيناه في البداية على اسم محطة للبث التلفزيوني، ولكنها لم تكن محطة تابعة لجزيرة "أوكيناوا".

كان الاسم المكتوب هو "فوجي إي ياساوا" فأخذ "كيوكيتشي" يكرر ذلك في سريره.. ولكنه لم يمد يده لكي يأخذ البطاقة من صاحبها الذي كان يمد يده بها.

كان الشاب الذي يقف إلى جوار الرجل يرسم ابتسامه ودية طوال الوقت.. إلا أن تعبيرات وجهه تحولت إلى العبوس والقنوط بعد لحظات كرد فعل لتصرف "كيوكيتشي" البارد.

أما الرجل الكبير فقد ظل يرسم ابتسامه مصطنعة— رغم ذلك— أعاد بطاقته إلى مكانها في جيبه.

انحنى الرجل برأسه في أدب جم وهو يقول:

" لقد دلنا رئيس هذا الحي إلى مكانكم "

ثم استطرد بصوت خفيض، وهو يمسح العرق عن وجهه بفوطة، ويجول بعينه خلال الحديقة التي كانت مشدبة ومهندمة:

"إن الجو حار هنا".

وهنا خرج الشاب الصغير عن صمته فأوماً برأسه هو الآخر معرفاً نفسه:

"لقد تشرفت بكم..اسمي "إيزومي"!

لكن "كيوكيتشي" تجاهل بطاقة التعريف الصغيرة التي أبرزها الشاب بينما أخذ يتظاهر باختبار نصل منجله بمسح أصابعه فوقه.

نظر الشاب "إيزومي" إلى وجه زميله "فوجي إي" وتبادل معه نظرات متسائلة، وفي اللحظة التالية دس البطاقة في جيبه ثم انسحب قليلاً باتجاه ظل شجرة مجاورة. وهنا بادر الرجل بنبرة هادئة "كيوكيتشي" قائلاً:

"الحقيقة أننا جننا اليوم نقصدك لكي نستفسر عن أمر ما".

كان وقع تلك الكلمات مؤثراً على "كيوكيتشي"، إلا أنه استمر في تظاهره بالتجاهل التام، فأدار لهما ظهره ليبدأ في سن منجله داخل الطشت الألمونيوم على صفحة حجر للجلي، وهو يسكب الماء فوقه.

هنا انطلق "فوجي إي" بلغة يابانية فصيحة يرسل تلك الجمل المتتابة دون توقف:

"إنني أعتذر حقاً.. لإزعاجكم فجأة هكذا ودون سابق استئذان، كما تعلمون سيادتكم فقد اقترب الشهر السادس من هذه السنة، وبالتالي فإنني أعلم إن هناك استعدادات وتجهيزات كثيرة متعددة بدأها أهل الجزيرة بالفعل تحضيراً ليوم تأبين ضحايا الحرب، وبهذه المناسبة فإن محطة التفاز التي أنتمي إليها خططت لعمل برنامج في يوم ذكرى انتهاء الحرب في شهر اغسطس (آب) ولذلك جئت اليوم إليكم لكي أرجوكم معاونتي في جمع مادة هذا البرنامج".

ألجمت فصاحة "فوجي إي" لسان "كيوكيتشي" وأفحمه كلامه فصار يشعر بالحنق والغيط لعدم استطاعته الرد أو التعقيب، وكان يبدو أن "فوجي إي" لم يلحظ رد الفعل هذا، فاستمر يقول في حماس:

"لقد سمعت أنه يوجد بهذه القرية جمجمة تطلقون عليها "الرأس الباكية".. أليس هذا صحيحاً؟

على وقع هذه الجملة، توقفت يدا "كيوكيتشي" عن سن المنجل والتفت بجسده الذي لفحته الشمس ليرمق وجه "فوجي إي" الذي استرسل قائلاً:

"إنني أرغب أن أصور في هذا البرنامج تلك الجمجمة التي تبكي وتصفر مهما كلفني ذلك، لقد صار الناس الآن على وشك أن ينسوا تجاربهم في الحرب، ولهذا السبب فأني أود أن انقل للمشاهدين هذا المشهد من "اوكتيناوا"، ولهذا فسوف أكون ممتناً لكم إذا تعاونتم معي في سبيل هذا"

كانت نبرة صوت "فوجي إي" هادئة متزنة... في نفس الوقت الذي تفيض منها الحماسة والقوة.. ثم استمر في الحديث:

"طبقاً لما سمعته، يبدو أن تلك الجمجمة من بقايا جثة مقاتل من عناصر الفرق الانتحارية الخاصة، ولذلك أتمنى لو استطعت أيضاً الوصول إلى معرفة هوية صاحبها، وبهذا فعن طريق التنازع سنستطيع الاستعلام عن صاحب هذه الجمجمة من الناس في جميع أرجاء القطر.. وبالتالي مع الوصول لصاحبها سيتمكن ذووه وأقاربه من إقامه الشعائر والصلوات على روحه".

وهنا رد عليه "كيوكيتشي" بصوت مقتضب:

"من أين استطاع شخص مثلك أن يسمع بأمر تلك الجمجمة؟"

اطمئن "فوجي إي" إلى إنه استطاع أخيراً أن يخرج "كيوكيتشي" عن صمته فبادره:

"قيم يتعلق بذلك الأمر، عندما أطلعني موظف دار الوثائق التاريخية بالمحافظة على بعض الوثائق، كان يقف بالقرب مني طالب

جامعي من شباب القرية، يعمل بمكافأة رمزية بنفس الدار واسمه "أوشيرو"، عرفت منه تلك الحكاية بطريق المصادفة

ثم اقترب خطوة من "كيوكيتشي". وهنا عقب على كلامه:
"يقع بيت ذلك الطالب بالقرب من هنا.. هل تعلم ذلك؟"
"نعم".

هنا رمق "كيوكيتشي" موضع أقدام "فوجي إي" بنظرة سريعة، فاسترسل الأخير:

"إنني أعتزم أن أستأجره من أجل إنجاز هذه المهمة إذا استطعت الاتفاق معه على ذلك"

لقد ظل "كيوكيتشي" يتأمل المنجل الذي يمسك به في يده بضع لحظات، ثم رفع رأسه لينظر إلى وجه "فوجي إي" ثم قال له:

"وهل كان "أوشيرو" أيضا هو الذي أخبرك بأن صاحب تلك الجمجمة هو انتحاري من الفرق الخاصة؟"

"حسناً.. لقد حصلت على تلك المعلومة من السيد "إيشيكوا" الذي يعمل رئيسا لهذا الحي، وهو الذي وجهني أيضا لكي أقوم بزيارتك وأخبرني أنك أكثر الناس معرفة بأمر تلك الجمجمة".

وهنا تمت "كيوكيتشي" في سريرته:

"اللعنة عليك أيها الأخرق "طوكوايتشي"!"

وفي الوقت نفسه كان يوزع نظراته النارية الحانقة على وجه الرجلين المائتين أمامه ثم قال:

" هذا لن يكون أبداً! ".

"ماذا؟ ماذا نقول؟"

كانت علامات الحيرة والارتباك تبدو على وجه "فوجي إي" الذي لم يفهم تلك اللكنة الغربية، فاسترسل "كيوكتشي" متحدثاً بنفس لكنة أوкинаوا:

"أقول لك إن هذا الأمر لن يكون أبداً! إن تلك الجمجمة ليست سلعة للعرض، ثم أخبرني أيها الرجل ما هي الضرورة التي تدفعك إلى عرض تلك الجمجمة على شاشة التلفاز؟"

"هذا هو ما كنت أريد أن أوضحه لك. إن كل ما يعرفه أهل الوطن الأم في اليابان، هو ما يخص بالطبع قضية الانتحار الجماعي لطالبات المدارس عند جرف "هيميه يوري" خلال معركة أوкинаوا، ولا يعرفون الكثير من التفاصيل الأخرى، ومن هنا فقد رأيت إطلاع الناس في طول اليابان وعرضها على تجارب وذكريات أهل أوкинаوا، التي مروا بها خلال تلك المعركة البرية، الوحيدة التي جرت على أرض اليابان خلال الحرب"

"لن يغير من الأمر شيئاً، إذا عرف الناس عندكم ما تريد أنت إطلاعهم عليه، فإذا كنت تريد التصوير، فلتقصد مكاناً آخر ولتبتعد عني".

"إنني أنفهم مشاعرك، ولكنني أعتقد بوجود معنى كبير لإطلاع الناس في كل أنحاء القطر على حقيقة تلك الجمجمة الباكية".

"اللعنة.. هل يجب عليّ أن أكرر عليك ما قلته مرة أخرى؟ أغرب عن وجهي بسرعة"

وبعد أن أنهى جملمته غمر المنجل الذي امسكه بيده (والذي انتهى من سنه) في وعاء الغسيل المعدني، ثم أخرجه من الماء ونهض واقفاً وهو يتظاهر الانشغال برفع المنجل في الهواء لكي يجف من البلل.

وهنا خرج الشاب "إيزومي" عن صمته الطويل وصاح بنبرة حادة:

"هيا بنا نغادر هذا المكان يا سيد "فوجي اي"، ليس هناك داع للتذلل له أكثر من هذا، فلنعد إلى السيد "إيشيكوا" ونستمع منه إلى تفاصيل تلك الحكاية"

لكن "فوجي اي" شرع في تأنيبه:

"ما هذه اللهجة التي تستخدمها معي..."

وقبل أن يكمل جملمته تركه "إيزومي" وبدأ يسير في اتجاه البوابة! أما "كيوكيتشي" فقد رمق وجه "فوجي اي" بنظرة سريعة، والذي يكبره بسنتين أو ثلاث سنوات.. وهو الوجه الذي لاحظ عليه التأسف والانكسار، ثم عاد لينظر في اتجاه آخر كي لا تلتقي عيناه بعينيه، وانسحب هو الآخر بعيداً باتجاه الحديقة الخلفية، وهو يقبض على المنجل بيده.

انحنى "فوجي اي" برأسه في تواضع جم، وهو يقول بصوت عال:

"لقد أزعجتك يا سيدي اليوم بزيارتي المفاجئة، ولكني أرجوك في النهاية أيضاً أن تراجع نفسك وتسمعني تلك الحكاية"

رغم أن "كيوكيتشي" كان يوليه ظهره إلا انه شعر جيداً بمدى انكساره وقلة حيالته، ولكنه ظل يحتفظ بصمته وهو يتابع سيره، بينما

كان يلوح بذراعه الممسكة بالمنجل يمينا ويسارا، يقطع الأعواد لكي تتساقط على الأرض، وعلى النجيل النابت منها، تلك الأعواد التي كانت في سمك الإصبع الصغير لليد.

عند المساء وبعد أن انتهى "كيوكيتشي" من أعمال الفلاحة بالحقل.. تذكر فجأة، أمر بطاقة التعارف تلك التي تركها "فوجي إي" مدسوسة في شق باب الحديقة الخشبي، فهب إلى هناك والتقطها واخذ يقرأ اسم "فوجي إي" على الضوء المتسرب من ناحية المطبخ ليتأكد منه، ثم دفس البطاقة في جيب سرواله الملوخ بالطين، ورشق المنجل في عمود خشبي قريب منه. وفي اللحظة التالية أطلقت زوجته "ميتسو" برأسها من المطبخ، وهي تصيح به:

"يا زوجي العزيز... سوف أسبقك وأدخل الحمام".

فرد عليها "كيوكيتشي":

"سأدخل الحمام فيما بعد"

كان رده سريعا مقتضبا تجاهل به جملة زوجته، التي كانت تنم عنها نبرة التساؤل عما يشغله، ثم مضى خارجا إلى العراء يقطع الطريق خلال الأشجار الباسقة، بينما كانت رائحة العرق النفاذة تفوح من جسده خلال الهواء المشبع بالرطوبة الساخنة، ومن خلفه جاء صوت زوجته وهي تصيح به:

"إن أكيرا" لم يعد بعد من المدرسة، فإذا صادفته في طريقك أطلب منه أن يعود إلى البيت بسرعة".

لكن "كيوكيتشي" تجاهلها ولم يرد عليها، بينما كان يقطع الطريق مبتعدا بخطوات سريعة.

كان "إيشكياوا طوكوايتشي" رئيس الحي يجلس متربعا على
الحصيرة النايلون المفروشة فوق نجيل الحديقة، يحيط به عدد من
الرجال، بينما كانوا يتبادلون أقذاح الجعة، فلما لمح "كيوكيتشي" وهو
يقرب ناحيته صاح به:

"مرحبا بك يا "كيوكيتشي" .. تفضل".

كانت نبرة صوت "إيشكياوا" التي لاح منها بداية السكر والثمالة
مفعمة بروح الود والألفة والترحيب، حينما ظهر "كيوكيتشي" على حين
فجأة من بين أشجار الـ"هين بون" وبعد أن تأكد "إيشكياوا" من خلال
الضوء المتسلل من شرفة البيت من أن القادم هو "كيوكيتشي".

كان صوت زفرات "كيوكيتشي" الذي يخرج من أنفه ضعيفا يكاد
لا يُسمع، وقف بالقرب من الدائرة التي شكلها الرجال الجالسون متأملا
وجوههم.

أما "شاكوا" و"ايمهاكو" اللذان كانا يجلسان إلى جانبي "إيشكياوا"،
وكذلك "فومي أو" ابنه الذي تخرّج مؤخرا في إحدى الجامعات الخاصة
بالجزيرة، فقد ظلوا يحدقون بدورهم في وجه ذلك الرجل الذي اقتحم
عليهم مجلس الخمر، بينما كانت وجوههم التي لفتحها الشمس، تلمع مع
أشعتها التي أشرفت على المغيب.

أفسح "إيشكياوا" مكانا بجانبه كي يجلس إليه "كيوكيتشي" وهو
يدعوه:

"يالها من غيبة طويلة أيها الرجل.. هيا يا "كيوكيتشي" وتناول
معنا قدحا من الجعة".

لم يكن "إيشيكاوا" قد انتبه في تلك اللحظة إلى وجه "كيوكيتشي" أو إلى نظرات عينيه اللتين شابهما بعض البرود والامتعاض.
كان "كيوكيتشي" و"إيشيكاوا" زميلين بنفس المدرسة الابتدائية أيام الطفولة.

لكن ما كان يختلف فيه الاثنان أن "كيوكيتشي" من أسرة ريفية، عاش صباه كواحد من عمال البناء والتعمير، يعمل في إنشاءات القواعد العسكرية لـ"الجيش الصديقة" بالجزيرة، ولم يكن يتردد على مدرسته إلا لماما، وكان يقضي بقية يومه في الفلاحة بالحقل، أما "طوكويتشي" فقد كان في صباه واحدا من المعدودين على الأصابع في القرية من العائلات الثرية ذات النفوذ، وكان كذلك واحدا من ضمن القليلين من صبية القرية ممن استطاعوا دخول المدرسة الإعدادية، وقد حدث بعد دخول المدرسة الإعدادية مباشرة أن نشبت معارك "أوكيناوا" فتوقفت الدراسة تماما بجميع مدارس الجزيرة.

رغم تقدم سن "كيوكيتشي" فقد كان جسده ضئيلاً، مما ساعده على الإفلات من التجنيد ضمن قوات الدفاع عن الجزيرة، وظل خلال المعارك يجوب الجبال مع والديه، بحثاً عن ملجأ للنجاة من الموت.

أما "طوكويتشي" فقد تم تجنيده في الفرق الإمبراطورية الانتحارية.. لكن أحدا لم يكن يعلم بتفاصيل ما مر به خلال تلك التجربة.

بعد انتهاء الحرب التقى الاثنان بعد غيبة طويلة داخل معسكرات الايواء الجماعية، وما شعر به "كيوكيتشي" ساعتها أنه لم يعد هناك ما يتحدث به مع صديق طفولته.

ولم يكن هذا الأمر يقتصر على "طوكوايتشي"، بل حتى تجاه والديه، فقد شعر "طوكوايتشي" أنه ليس هناك ما يستطيع الإفصاح به بشكل صحيح مكتمل مهما أسعفته الكلمات والتعبيرات بعد أن مر بأيام تراكمت خلالها حقائق وأحداث رهيبية مفاجئة ومحبطة.

لكن من أجل العودة إلى الحياة الطبيعية في هذه القرية الضيقة التي تحطم بها كل شيء، لم يكن هناك مناص من استغلال كل ما هو ممكن من وسائل وحيل.

كان "كيوكيتشي" يتوقع حدوث جدل وخلاف مع زميل طفولته، فقد كان الشعور بالإرهاق والإحباط قد تملك منه تماماً، ولذلك برزت مشاعره وعواطفه، ولم يعد الغضب الذي يعترى صدره يظهر في شكل واضح.

فجأة أحس "كيوكيتشي" بألم فظيع يسري خلف أذنه اليمنى، مرورا بجانب رأسه الأيسر، ومع هذا الإحساس بالألم نفذ صوت عال مدويا من خلال أذنه.

صار "كيوكيتشي" يضغط بإصبعه السبابة والخنصر على مؤخرة رأسه، بينما جلس القرفصاء على الأرض، وهو يصارع الألم.

في اللحظة التالية، أمسكت يد مبلة بكتفه من الخلف مع صوت يصيح به:

"ماذا ألم بك يا "كيوكيتشي"؟"

لكنه دفع تلك اليد بكل قوته، وهو يعود ليقف على قدميه مرة أخرى، مترنحاً، كان الألم قد خفت حدته بسرعة، فقد كانت هذه الحالة تهاجمه بين وقت وآخر، مثل النوبة المفاجئة.

"يا "طوكو إيتشي" .. هل تحدثت مع ذلك الرجل القادم من الجزيرة
الأم، والمسمى "فوجي إي" بأمر تلك الجمجمة الباكية؟"

"نعم، لقد تحدثت معه هذا الصباح حين زارني فجأة، فهل هناك ما
يقلقك بشأن هذا الأمر"

"هل حقا ما ذكره بشأن إذاعة هذا الكلام في التلفاز؟"

"نعم حقا.. قال لي إنه يريد تعاوننا معه، وتوسل لي من أجل ذلك،
فقلت له إن أكثر الناس معرفة بأمر تلك الجمجمة هو أنت، فهل
ضايقتك ذلك"

"لماذا تتصرف هكذا على هواك دون استئذاني؟"
"ماذا؟"

أحس "طوكوايتشي" هنا بأن "كيوكيتشي" لم يعد ذلك الرجل الذي
اعتاد صمته وهدوءه، فحرق في وجهه بعينيه اللتين أثقلهما تأثير
الخمير.

"أعني أنه بأي حق تسمح للآخرين بتصويري في التلفاز أو
غيره؟"

"بأي حق وبأي إذن؟ بماذا تهذي أيها الرجل، وأي إذن هذا الذي
أخذه من شخص مثلك؟"

أطلق "طوكوايتشي" تلك الجملة بنبرة غاضبة:

"إن أي فرد في هذه القرية يعلم تماما أنه ليس من حق أي غريب
أن يلمس تلك الجمجمة".

"لم أقل أن أحدا سيعبث بتلك الجمجمة أو يلمسها.. إنني أقول أنه
سيقوم بتصويرها وحسب".

"إنه نفس الشيء!"

"ما هو الذي تعني به 'نفس الشيء'؟"

ما أن أنهى "طوكوايتشي" هذه الجملة حتى انتفض واقفا وهو يسكب الخمر من قدحه على أرضية الحديقة بحركة غاضبة منفعة، ثم استند على الشجرة القريبة وهو يترنح من تأثير الخمر.

وهنا صاح "ساكا":

"مهلاً يا 'طوكوايتشي'! ماذا تقصد يا 'كيوكيتشي' بتلك الحكاية البغيضة؟"

لقد كان "ساكا" وهو ينطق هذه الجملة يشد "طوكوايتشي" من طرف سرواله، بينما يوزع نظراته الحائرة بين الإثنين، محاولاً تهدئة الأمور.

أما "إيماهاكو" الذي بدت علامات الحيرة على وجهه، فقد صار يحث "كيوكيتشي" على الجلوس:

"ماذا بك 'ياكيوكيتشي'؟ إن 'طوكو إيتشي' يفكر في مصلحة قريبنا حين يتحدث مع مندوب محطة التفتاز ليس أكثر."

لكن "كيوكيتشي" حرق في وجوه الجالسين بنظرات نارياً غاضبة، وهو يصيح:

"اللعة.. ماذا تقصد بـ'مصلحة قريبنا'؟"

"الحقيقة يا 'كيوكيتشي' أن ذلك البرنامج سيذاع على محطات القطر كله. القطر كله يا رجل. ألن يكون ذلك نوعاً جيداً من الدعاية للقرية؟"

لفظ "إيماهاكو" بهذه الجملة بوجه جاد وصارم.

"حتى الآن لم يكن هناك سياح يزورون قريتنا هذه، لبعدها الكبير عن عاصمة الجزيرة "ناها"، ولكن بعد شهرة قريتنا بفضل هذا البرنامج سوف يأتي الكثير من السياح من الجزيرة الأم لزيارتنا. إذا فكرت في مستقبل هذه القرية، فلن تتطور أبدا بالاعتماد فقط على الزراعة، يجب علينا من الآن بذل الجهود في مجال السياحة، ومن أجل هذا، ألا ترى إن ذلك البرنامج سيعود علينا جميعا بالخير"؟

لكن "كيوكيتشي" بصق في الأرض، وهو يصيح:

"ماذا تقصدون بمصلحة القرية؟ عليكم اللعنة! أتريدون استغلال رفات رجل مات في الحرب، في التجارة وكسب الأموال"؟

هنا تدخل "قومي أو" وأمسك بذراع أبيه، الذي احمر وجهه بالغضب، واقترب من "كيوكيتشي" .. محاولا ضربه، ثم صاح:

"يا سيد "كيوكيتشي" .. ليس لك الحق فيما تقول، لقد تجاوزت الحدود"

"إن الحديث عن هذا البرنامج ليس من أجل التجارة وكسب المال، لقد بدأ الكلام في هذا الموضوع بغرض تعريف المواطنين في طول البلاد وعرضها بحقيقة ما حدث في معركة "أوكيناوا".

أنا أيضا حين قمت بزيارة الجزيرة الأم، عرفت أمرا لم أكن أحظه من قبل، إن الناس هناك لا يعرفون شيئا عما حدث هنا خلال الحرب، وهو ما صدمني وأحبطني .. حين أخبرت زملائي في الجامعة بأمر تلك الجمجمة الباكية، لم يكن رد فعلهم سوى الشعور بالأسف على حدوتة من الحوادث العابرة، يجب أن نعرفهم أكثر بشأن ما حدث في معركة "أوكيناوا" ... إنه واجب علينا"

"هل تريد بهذا أن ترفع من اسمك لتخوض المعركة الانتخابية القادمة؟"

لوى "كيوكيتشي" شفتيه بهذه الجملة الساخرة، فلم يجد الأربعة الآخرون ما يردون به عليه سوى رمقه بنظرات الغضب والتوعد.
"على أية حال إنني أعترض بشدة على هذا الكلام"

نطق "كيوكيتشي" بهذه الكلمات وهو يتحدى "طوكوايتشي" الذي استند إلى الشجرة، وهو يزفر أنفاسه التي تفوح منها رائحة الخمر.

أخرج "طوكوايتشي" تلك الجملة الغاضبة ثم جلس على الأرض وصب لنفسه قدحا من الجعة واحتساه على دفعه واحدة، ثم ضرب الحصيرة بقبضته.

"نسي هذا الرجل ما فعلته من أجله.. يا له من ناكر للجميل"
"لا تتعجل. لا يمكنه أن يفعل شيئا"

"إن "كيوكيتشي" من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن تتكهن بما سيقدم عليه من حماقات، فقد يقوم بإثارة عواجز القرية، ويدور هنا وهناك يثرثر من أجل إيذائي، فتصير هناك من الأمور ما يسبب لنا الإزعاج والقلق، ويجب عليّ أن أسارع بتنبيه السيد "فوجي اي" ليأخذ حذره"

أوما "طوكوايتشي" برأسه موافقا على كلام زميله، ثم زعق غاضبا يطلب من نسوة البيت إحضار المزيد من الخمر على وجه السرعة.

صار "كيوكيتشي" يرغى ويزبد، ويتمتم:
"لقد تفاقمت الأمور".

كان ذلك بينما كان يقطع الطريق على مهل مغادرا بيت "طوكوايتشي" من خلال الطريق الجديد المؤدي إلى مصب نهر "إيري غامي غاوا".

حتى ذلك الوقت، لم يكن هناك أي من أهل القرية ممن سعوا بشكل إيجابي، في سبيل تعريف الآخرين من الأعراب في القرية، بأمر تلك الجمجمة الباكية.

السبب في ذلك، هو خشية أهل القرية من غضب جيل المحاربين، من الباقين على قيد الحياة، لأن مجرد الخوض في ذكر التفاصيل قد يثير المشاعر، كما أن صوت الريح الحزين الصادر من المقبرة، حين كان يتردد في أرجاء المكان، ويراود الأذان، كان يتسبب في إثارة مشاعر الحزن والأسى في صدور الناس، ويدفعهم إلى عدم الرغبة في نبش الماضي، وترك الرفات ساكنة في مكانها.

في تلك القرية التي كان يحذر عواجزها، من مجرد الإشارة بالأصابع إلى مكان تلك المقبرة، خشية حدوث مكروه ما، كان هناك من أهلها أيضا، من يتجنبون مجرد الذهاب للتطلع إلى تلك الجمجمة المنسية، التي استمرت سنوات طوالاً في مكانها بالعراء ترقب البحر عن بعد، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُثار فيها الجدل حول استخدام تلك المقبرة للسياحة والفرجة.

كانت الغابة المتكاثفة الأشجار على جانبي الطريق، تمد فروعها وأغصانها لكي تتشابك وتصنع ما يشبه السقف، وهو السقف الذي ألقى بظلال ثقيلة عشوائية فوق صفحة الاسفلت.

وسط ذلك السكون المطبق، دوى فجأة صوت أزيز متألم لحشرة من حشرات الجراد الأسود، يبدو أنها هوجمت من خلفاء كبيرة الحجم. توقف "كيوكيتشي" عن السير وتطلع بعينيه نحو تلك الاغصان المتشابكة، لمح من خلال تلك الأغصان، على ضوء القمر الذي أضاء السماء الصافية، اثنين من الوطاويط السوداء، يدوران مشرعي الأجنحة، وكأنها رايات سوداء مرفرفة، كان صوت خبطات الأجنحة يدوي في الفضاء.. وبعد ذلك بلحظات اختفى تماما صوت حشرة الجراد.

شعر "كيوكيتشي" بجسده المتعب المتصيب عرقا، برعشة برد تداومه، ولمح من مكانه دربا ضيقا ممتدا عن بعد من خلال الكوبري العلوي للطريق، ومن خلال الظلام لمح حشرة من حشرات اليراع المضيفة، تطير في عشوائية، تقطع الدرب الذي لم يكن مرصوفا بالاسفلت، وإنما كان من الحجر الجيري الأبيض.

وكانما كانت تلك الحشرة مرشدته في الطريق، فقد سار "كيوكيتشي" في أثرها مهتديا بضوئها!

بعد أن تقدم خلال الدرب عدة خطوات، لمح عدداً هائلا من تلك اليراعات المضيفة، تتجمع عند الجذور النافرة للأشجار الضخمة على جانبي الدرب، وتتساقط فوق بعضها البعض.

كان هناك سرب من تلك اليراعات المضيفة ينساب ساقطا باتجاه الأرض، عبر منتصف ذلك الجرف العالي، وكان ذلك السرب عندما يصل إلى الأرض يعود فيصعد إلى أعلى في هدوء متجها مرة أخرى إلى جذور الأشجار. رأى "كيوكيتشي" على هدي تلك الأضواء

الفسفورية، الخافتة ذلك اللمعان الأبيض الباهت الصادر من الجمجمة الباكية.

هكذا صار "كيوكيتشي" يقف تحت ذلك الجرف بعد غيبة سنوات طويلة، وشعر انه لا يستطيع ان ينسى ذلك الإحساس بالرعب الذي انتابه حين سمع لأول مرة صوت ذلك الصغير والبكاء. ولأنه لم يكن يزور هذا المكان كثيرا، فلم يكن قد سمع ذلك الصوت إلا مرات معدودة.

لكن لان ذلك الصوت صار يتلبس صدره من الأعماق.. فقد كان يخيل إليه بين حين وآخر أنه يعود ليردد صداه داخله على حين فجأة، فيدفعه إلى الإشراف على الجنون من فرط الخوف والرعب.

بينما ظل هكذا يتأمل ذلك الضوء الأبيض الشاحب المنصب على تلك الجمجمة، خيل له أنه بدأ يسمع صوت ذلك النحيب، يرتفع رويدا رويدا.

أغلق "كيوكيتشي" جفنيه، وأخذ يتذكر أحداث المرة الأولى حين جاء لزيارة هذه المقبرة الموجودة بالعراء.

كان "كيوكيتشي" يحاول الإسراع في السير بينما كانت سيقانه على وشك الانزلاق في الطمي الكثيف، في ذلك الطريق الذي يتخلل أشجار الـ"مانجلوب" المتكاثفة، والمؤدي إلى مصب نهر "إيري كامي غاوا".

كان صوت "يوشى اكي" والد "كيوكيتشي" يناديه ويعنفه من بعيد، من الجهة الأمامية لتأخره وتلكته في السير كعادته، كان الصوت مكتوما متحسرجا، وضوء القمر المتسلل من خلال أوراق أشجار الـ"هيروغي" المتكاثفة المتألقة، ينعكس على صفحة الطين الزلج المفروش

على الأرض، وكانت ثمار أشجار الـ "هيروغي" المتدلّية هنا وهناك تبدو بظلالها كأبراج قصيرة صغيرة، تضيء كآبة وانقباضاً على المكان.

كان "كيوكيتشي" يغالب الشعور بالقيء من الرائحة النفاذة للغازات المنبثقة من تحت أقدامه، فعدل من وضع القفة التي حملها فوق ظهره محاولاً متابعة السير.

مر أكثر من شهر منذ نزول الجيش الأمريكي على سواحل "أوكيناوا"، وكانت المواد الغذائية قد شارفت على النفاذ.

بعد توقف قصف مدفعية الأسطول الأمريكي الذي استمر طوال النهار، خرج أهالي القرية من مخابئهم بالكهوف والمغارات ليحصلوا على بعض جذور البطاطا، وأعواد قصب السكر من الحقول القريبة، استطاعوا بالكاد مقاومة الجوع الذي عانوا منه خلال الاختباء، وكان من بين هؤلاء "يوشى اكي" وابنه "كيوكيتشي" اللذين استغلا ستار الليل للتسلل بخطى سريعة إلى الحقول القريبة من ساحل البحر، وهي الحقول الضيقة المتواضعة، ليخرجا من الأرض بعض جذور البطاطا الصغيرة النحيلة، التي لا يتجاوز سمك الواحد منها إصبع السبابة، ثم عادا بسرعة يشقان الطريق نحو المغارة.

كان الاثنان يشعران بالقلق الشديد والخوف من أن يفشلا في العودة إلى الأم والأطفال الصغار، الذين كانوا ينتظرونهم في أحد الكهوف ببطن الجبل قبل ان يطلع الفجر.

كان "كيوكيتشي" يسعى جاهدا في السير خلف أبيه الذي التزم الصمت حتى لا يضل الطريق، وكان الطين الذي انغrust به ساق

"كيوكيتشي" حتى الركبتين رخوا، حتى أنه أحس كما لو كان الطين يشد ساقيه، وكأنه يد ميت تعفت جثته!

في منتصف الطريق كاد "كيوكيتشي" ينكفئ على وجهه، وفي هذه اللحظة داهمت خياشيمه رائحة حمضية نفاذة من الطين تشبه رائحة الامونيا، جعلته يصدر صرخة قصيرة.. فشعر بالخزي وهو يرمق ظهر أبيه.

هنا تنفس "كيوكيتشي" الصعداء حين أدرك أن عيني أبيه الحادثين لم تقعا عليه، فبلع ريقه الذي امتلأ بطعم الطين.

أما الاب فقد ظل ساكنا لا يبدو عليه الارتباك وهو يجول ببصره في أنحاء المكان.

كاد "كيوكيتشي" أن ينادى على أبيه، لكنه منع نفسه في آخر لحظة بعد أن خشي وجود الأعداء بالقرب من المكان، كبح صوته الذي كاد يمر خلال حنجرته.

كان يميز بأذنيه صوت تنفس جنود الأعداء، وهم يضعون أصابعهم على زناد البنادق، بينما اختفوا في ظلال أشجار الـ"مانغلوب" المتكاثفة.

كبح رغبته في الاسراع بالعدو، هربا فظل في وضعه غير الطبيعي يضع حمل جسده كله على ساق واحدة غرست في الطين، بينما أخذت عيونه وحدها تتحرك في كل الاتجاهات.

في هذه الأثناء، كان صوت الماء الذي ينساب خلال جذور أشجار الـ"هيروغي" يرتفع شيئاً فشيئاً، وكانت ظلال الأشجار حين تتحرك،

تمرق من خلالها خيوط الضوء، وتوحي وكأنها جنود الأعداء يتحركون هنا وهناك، فتوقع "كيوكيتشي" بين لحظة وأخرى أن يضيئ الظلام بومضات الطلقات النارية وهي تمرق من خلال سيقان أشجار الـ "مانغلوب" المتشابكة.

هنا نزل "كيوكيتشي" بخصره إلى أسفل في وضع استعداد كي ينطلق هاربا في أية لحظة.

في اللحظة التالية لمح "كيوكيتشي" ذراع أبيه، وهو يتحرك في حذر وبطء.

استغرق "كيوكيتشي" بعض الوقت، حتى أدرك أن أباه يشير إليه لكي يبدأ التحرك. أخرج "كيوكيتشي" ساقه من أعماق الطين، وأخذ يتقدم في حذر حتى صار إلى جواره، وحين نظر في الاتجاه الذي يحدق فيه أبوه.. استطاع أن يميز خيالا أسود.

بعد لحظات استطاع "كيوكيتشي" أن يميز ذلك الخيال. أجل لقد كان جثة منكفئة على وجهها، لأحد الجنود، انجرفت إلى ذلك الجدول الصغير الذي ينساب خلال سيقان أشجار الـ "هيروغي" الباسقة بعد أن قذف بها مد البحر من جهة الساحل، وكان يبدو أن صاحب الجثة جندي صغير السن، ومن ملابسه العسكرية أدرك أنه أحد أفراد الفرق الانتحارية.

فجأة جاء صوت أبيه وهو يقول له:
"احمل هذا"

في اللحظة التالية وجد قفة تعنلي ظهره!

اقترب الأب حذرا من الجثة الطافية، ثم لف ذراعيه حولها من الخلف، وشبك يديه فوق صدرها، وصار يجذبها خارج الطين، وبعدها نجح في حمل الجثة على ظهره.

اندهش "كيوكيتشي" من سلوك أبيه، واخذ يحرق في وجهه الذي أخذت تتراقص فوقه ظلال الأشجار خلال ضوء القمر.

شرح الأب في السير بجسده المنغمس في الطين، وهو يحركه بقوه يمينا ويسارا كي يستطيع شق طريقه. تبع "كيوكيتشي" والده من الخلف، تملأه إثارة بالغة، وهو ينظر إلى طرفي حذاء الجندي الميت اللذين كانا يشقان خطين خلال الطين، مثل ثعبانين يزحفان على الأرض، بينما كانت تلك الجثة تبرز خلال الظلام فوق ظهر جسد أبيه القصير الضئيل.

وأخيرا استطاع الأب أن يصل إلى أسفل الجرف تاركا مستنقع الطين خلفه، والذي كان مكدسا بأشجار الـ"مانغلوب" الباسقة المتكاثفة.

كان الجرف عاليا شديد الوعورة في عيني "كيوكيتشي". نفذ الأب إلى درب ضيق يربط البحر بالقرية، ويسير بحذاء النهر، وهنا ظهر عدد كبير من سرطانات البحر تجرى مذعورة في كل الاتجاهات محدثة صوتا عاليا خلال الأعشاب البرية المتكاثفة على جانبي الدرب، وبين وقت وآخر، كانت تظهر في الفضاء بعض حشرات اليراع المضئية، تطير هنا وهناك وكأنها طلاقات الإضاءة الليلية.

كلما مرق الإثنان عبر بعض تجمعات الأشجار، كان ضوء القمر يكشف جسديهما تماما.

أخذ "كيوكيتشي" يغالب الإحساس بالآلام التي بدأت تتتابه في
خصره وظهره لاستمراره في السير منحنيًا إلى الأمام لفترة طويلة،
في نفس الوقت الذي تملك فيه الرعب والقلق منه تماما.

إلى هذه الدرجة كان السير في مناطق العراء، تحت ضوء القمر
مبالغا في خطورته، وفي نفس الوقت لم يكن "كيوكيتشي" يضمن
النجاح في الوصول إلى المغارة خلال هذا الظلام، حتى لو بدأ الركض
من الآن بكل سرعة وقوة.

بينما كان "كيوكيتشي" يوزع نظراته بين الجثة المحمولة فوق
ظهر أبيه، الذي يشق الطريق صامتا وسط حفيف الأوراق والأعشاب،
والصوت الذي يصدر من حركة سرطان البحر، وبين السماء، أحس
أن الضوء الذي أخذ يزداد شيئا فشيئا، هو نوع من خداع البصر!

أخيرا، توقف أبوه عن السير عند مكان مفتوح بالقرب من مصب
النهر، حيث لاح على البعد ظل باهت لبارجة أمريكية، هناك عند تلك
الستارة الخفيفة الزرقاء اللون للسماء.

انكمش "كيوكيتشي" وهو يتوقع في أية لحظة أن تتهمر نيران
المدافع الرشاشة الثقيلة فوق رأسيهما.

لكن ها هو ذلك الأب الذي كان دائما ما يصفه بالجبن من فرط
حرصه، يستحيل في نظره شجاعا يؤمن بكلمات جنود القوات الحليفة
التي تقول بأن عيون الجنود الأمريكيين لا تميز في الظلام!، فقد شرع
الأب في الظهور بالعراء بحركة سريعة واثقة، وهو يحدق باتجاه قمة
الجرف.

حين رأى "كيوكيتشي" أباه يبدأ تسلق الجرف وهو يجر تلك الجثة الثقيلة خلفه عبر الدرجات الحجرية المثبتة بالجرف، بدأ يدرك أخيراً مغزى سلوكه الغريب.

أجل، لقد كان يزعم حمل الجثة إلى تلك المقبرة المفتوحة في العراء بمنصف الجرف، المقبرة الموجودة بالقرية منذ زمن بعيد، لقد أسر قلب "كيوكيتشي" مشهد أبيه وهو يتسلق الجرف الوعر بأقدام ثابتة، واثقة لا تدل على الرعب والفرع، أنزل القفة التي يحملها على ظهره إلى الأرض واندفع بسرعة مرتقياً درجات السلم الحجري، ليحمل ساقي الجندي الصريع بين ذراعيه.

منذ الوهلة الأولى، اندهش "كيوكيتشي" من ثقل هاتين الساقين، فقد تشعب الحذاء الجلدي الطويل، والثياب العسكرية الخاصة بطياري الفرق الانتحارية بكمية كبيرة من الطين ومياه البحر، حتى أن ثقل وزن هاتين الساقين كان يوحي بأنهما مثل يدين تشدان حاملها وتجذبانه عنوة نحو غياهب الأرض. وفي نفس تلك اللحظة أحس "كيوكيتشي" بأنه لا يستطيع أن يفهم السبب الذي يدفع أهل القرية إلى وضع الجثث في ذلك المكان المرتفع المفتوح أعلى الجرف.

قدر "كيوكيتشي" ارتفاع الجرف بحوالي ثلاثين متراً، وكانت مساحة آخر درجة من درجات ذلك السلم واسعة تقرب من الثلاثة أمتار المربعة، وحين توقف الأب عن الصعود، أوجد "كيوكيتشي" يديه عن ساقي الجثة.

وحين استدار للخلف شاهد بانوراما واسعة مفتوحة تمتد هناك أسفل الجرف لم يرها من قبل.

كانت أشجار الـ"مانغلوب" المتكاثفة بظلالها السوداء تغطي ذلك المثلث الذي يحيط بمسار النهر، وكان النهر المنفصل لفرعين يلتقيان عند المصب، ويؤلفان فرعا واحدا، يصب في بوغاز صغير متصل بالبحر.

كانت السماء مضيئة على ضوء القمر لا يعيق ضياءها شيء، وحينما أدرك "كيوكيتشي" ذلك الأمر أخذت ركبته ترتعشان بشده خشية ان تلحظه وأباه عيون الأعداء، وهما مكشوفان هكذا دونما أي ظل أو غطاء.

دقق الأب مليا في المقبرة المكشوفة، دون ان يعطي اهتماما لتلك البانوراما المفتوحة على البحر والنهر.

الرمال البيضاء النظيفة الناصعة الباردة مفروشة وسط مجموعة من الأحجار الخضراء اللون.

في اللحظة التالية شرع الأب في إنزال الجثة عن ظهره إلى الأرض، ثم بدأ في خلع زي طياري الفرق الانتحارية المشبع بالطين عن جسد الجندي السريع، في نفس الوقت الذي أخذ فيه "كيوكيتشي" يراقب بعينه سلوك أبيه وهو مشدوه.

قام الأب بنزع كل الملابس حتى الجوارب، ثم أخرج خرقة قماشية من عبه، وصار يمسح بها جسد الجندي في عناية وتودة، حيث بدت الجثة نظيفة لامعة، وهي ترقد فوق الرمال البيضاء الصافية.

كان الجسد النضر الشاب يبدو شاهق البياض في عيني "كيوكيتشي"، واستنتج أن صاحب هذه الجثة ربما يكون قد سقط بطائرته المقاتلة في البحر، خلال هجوم الأمس بعد أن فشل في

الارتطام ببارجة الأعداء. كان ذلك الجسد، ينم عن أن صاحبه لم يتعد سن العشرين، وكان خاليا من أية جروح ظاهرة، كما إن رائحة العفن لم تكن تفوح منه على الاطلاق.

شعر عانته المتكاثف البارز من جسده النحيل الذي لم يفقد انسيابية خطوط تقسيمه، لامعا نظرا شد انتباه "كيوكيتشي" بقوة، وهنا أطل "كيوكيتشي" بوجهه من خلف ظهر ابيه ليطلع وجهه الجثة. كان وجه الميت جميلا بشوشا. فقد كانت الجثث التي شاهدها حتى الآن معظمها متعفن منتفخ يتجمع حول سوائلها المتعفنه المتسربة من الجراح المفتوحة أسراب الذباب، ومقارنه بتلك الجثث إندهش "كيوكيتشي" من مشهد ذلك الوجه الصبوح، حتى أنه ارتسمت على وجهه علامات الارتياح من فرط شعوره بالإعجاب والدهشة الشديدين.

لكن ذلك الإحساس تبدل بعد لحظات ليصبح شعورا بالانقباض فقد خيل لـ "كيوكيتشي" الذي أسند وجهه بكفي يديه، وهو يتأمله بأن يدي هذا الصريع تكادان تتحركان وتمتدان اليه.

بعد ان انتهى الأب من تنظيف التعاريج الدقيقة لأذن الصريع، وكذلك جفون العين من الطين الذي علق بها، أراح تلك الرأس المغمضة العينين في تودة لتتوسد الرمال.

وهنا اكتشف "كيوكيتشي" أثرا لاختراق رصاصة خلال الصدغ الأيسر للصريع، فنادى أباه بصوت خفيض:
"أبي"

لكنه لمح في نفس اللحظة علامات العناء والإرهاق على وجه أبيه فغالبته الدهشة. كان الأب يجلس على ركبتيه ويضرع في خشوع

ضاماً كفيه يتمم بدعاء ما، ودموعه تسيل من عينيه، أما ذلك الصريع الشاب المسجى على ظهره فوق الرمال، فقد كان يبدو واضحاً من ملامح وجهه ومظهره أنه من أبناء الجزر الأم لليابان.

ظل "كيوكيتشي" يسائل نفسه عن سر بكاء أبيه، فأشاح بوجهه بعيداً حتى لا يخرج أباه، وشغل نفسه مرتبكا بالتطلع في وجه الجندي الصريع.

أخذ ينقل نظراته في بطن من جذع القتيل الأسفل، مروراً إلى أعلى حتى منطقة الوجه، وفي تلك اللحظة لاحظ وجود جسم بارز اسود ذي بريق محشور بين الصخور الخضراء، فانتابه هاجس ما.

لم يتردد "كيوكيتشي" طويلاً قبل أن يمد يده تلقائياً ناحية ذلك الجسم الغريب، لكن أباه انتفض واقفاً فجأة فسحب "كيوكيتشي" يده الممتدة بسرعة كبيرة، وتظاهر بأنه يمسح كف يده المبتلة بالعرق، فوق فخذيه، وذلك في ارتباك ظاهر.

فجأة صاح الأب بصوت مسموع أمر:
"حسناً، فلنغادر المكان"

قال ذلك وهو يؤدي الصلاة صامتاً أمام الجثة، ثم بدأ ينزل درجات السلم الحجرية بخطوات قصيرة وسريعة، وكان الضوء الذي انتشر في اتجاه خط الأفق بالفعل قد غير لون السماء من اللون الصافى المائل إلى الخضرة، إلى اللون الذهبي، ولم تكن تبقى في سماء الفجر المفروشة فوق الجزيرة سوى بعض النجوم القليلة. احتار "كيوكيتشي" من ذلك الجسم الأسود البارز، وفيه يمكنه أن يفعل، ولكن رغبته في العبث بأي شيء خمدت وانطفأت في لحظة واحدة، حين التفت الأب

بوجهه وهو يحدق فيه بنظراته الحادة، لم يجد "كيوكيتشي" أمامه، سوى ان يتبع أباه نحو أسفل الجرف صامتا، وبخطى سريعة. شعر الاثنان في جسميهما كله ببقعة فضية اللون تتطلق من اتجاه البحر متجهة نحوهما بسرعة رهيبية وهي تتلألأ في الفضاء، فصارا يركضان باتجاه الجبل في عجلة كالمجانين، وقبل أن يبلغا نصف المسافة إلى ذلك الجبل، كان قصف مدفعية الأسطول قد بدأ. كان صوت هدير الدانات وهي تمرق في الفضاء عاليا فوق رأسيهما يهز قلبيهما، فظلا ينتقلان بسرعة كبيرة بين الأشجار المتفحمة حتى وصلا أخيرا إلى الجبل، وشرعا في صعوده.

مع تفرغ الهواء الكبير الذي خلفته قنبلة من مدفعية الأسطول انفجرت في الخلف طار "كيوكيتشي" بعيدا إلى الأمام، وانكفاً على وجهه عند مدخل مغارة ذات انحدار كبير. ومن داخل تلك المغارة ظهرت أمه تعدو بسرعة في استقبال الاثنين، وأسرعت باحتضان ابنها "كيوكيتشي" وهي تصرخ صرخة حزينة.

شعر "كيوكيتشي" بأمه ترفعه عن الأرض، وأن صدره مبتل بشيء ما دافئ لزج، فخرجت من فمه صرخة عفوية. لقد أدرك بعد لحظات ان ذلك السائل اللزج لم يكن دما، وإنما بعض الماء الراكد الممزوج بالطين بين الصخور، فجلس دون حراك على مقعدته، وقد خارت قواه تماما.

بعد أن تأكد "كيوكيتشي" من خلو جسده من الجراح، صار يهتف مناديا أباه، بينما خرجت الأم مذعورة من المغارة، وهي تبحث عن زوجها.

كان الأب هناك بالقرب من مدخل المغارة، خلف صخرة من الصخور، يصرخ ويئن، وهو يمسك ركبته المحطمة.

صرخت الأم صرخة مدوية، وهي ترى زوجها على هذه الحال، ثم فكت عظام الركبة التي زال الجلد واللحم عنها، تلمع تحت الخيوط الأولى لشمس الصباح، فقام "كيوكيتشي" وأمه بحمله من تحت إبطه وأدخلاه على عجل إلى المغارة وانزلقوا جميعا داخلها.

وسط الظلام الدامس، كان صوت تأوهات الأب المكتوم يُسمع بين وقت وآخر، في نفس ذلك الوقت كان "كيوكيتشي" يستشعر أنفاس أخته الصغيرة في قفاه من الخلف، حيث خلدت أخيرا إلى النوم بعد أن ظلت تبكى لفترة.

أدرك "كيوكيتشي" أن ثمار البطاطا التي أحضرها هذا الصباح سوف تنفذ خلال يومين على الأكثر، أجل فقد طارت القفة بمعظم ما كان فيها من شدة الانفجار، وكان يبدو أن المغارات الموجودة بالمنطقة المحيطة قد تم اكتشافها، حيث أن القصف أخذ يزداد تدريجيا هناك مع مرور الأيام، لكن "كيوكيتشي" كان يعلم تماما أنه إذا كان لزاما عليه ان يقود الجميع إلى مخابأ آخر، فسيكون من الضروري جمع المزيد من المواد الغذائية في أسرع وقت وتخزينها. نادى "كيوكيتشي" على أمه:

"أماه"

"هه"

تبادر إلى أسماعه صوت ذلك الرد من ناحية الظلّين المتصقّين ببعضهما هناك، فلم يكن "كيوكيتشي" يميز خلال الظلام الدامس ظل أبيه من ظل أمه.

"إلى متى يجب علينا أن نظل هنا بحق السماء؟ ألا نرحل إلى أعماق
الأحراش الموجودة حول مدينه "تاها"؟

"لا بأس، ولكننا لن نستطيع السير وأبوك مصاب بذلك الجرح"
"إذا لم نسرع بالخروج من هذا الكهف فسوف نموت جميعاً، دعيني
أحمل أبي"

لكن الأم لم ترد بشيء على اقتراح ابنها.

حين مد "كيوكيتشي" يده ليتحسس سطح الحجر المفرطح تحت
الوسادة، استطاع أن يصل إلى مكان الصرة القماشية الموجودة بين
السلة الخيزران والقدرة، فأسرع بفك ربطة الصرة، وبعد أن أخرج ما
بداخلها، وضعه فوق الحجر، وضم كفيه في خشوع، ربط قطعة
القماش حول خصره ونهض واقفاً.

"ماذا تفعل بحق السماء؟"

"سوف أذهب لإحضار المزيد من ثمار البطاطا".

حاولت الأم التي أصيبت بالدهشة أن تمسك بتلابيب ابنها، لكنه
انزلق من يدها وخرج من المغارة هابطاً الطريق الجبلي وسط الظلام.

كانت الحقول القريبة من الساحل تمتد في شريط ضيق، وتكثر بها
الأحجار والزلط، ولذلك فقد كان من الصعوبة بمكان، الحفر في تلك
التربة بأعواد من الخشب، فاضطر "كيوكيتشي" أن يبدأ تقليب الأرض
بيديه العاريتين.

بعد فترة قصيرة من بدء عمله، انقصفت بعض أظافر يديه، ومع
ذلك لم تكن هناك فسحة من الوقت للمعانة والأم.

استطاع بالكاد إخراج عدد قليل من ثمار البطاطا، وقام بلفها في الصرة، ثم أسرع الخطو عائداً باتجاه المغارة. كان ضوء القمر الذي تسلل عبر أشجار الـ"منغلوب" يترك بقاعاً مضيئة تتراقص فوق صفحة الأرض الموحلة، وكان "كيوكيتشي" يشعر أثناء ذلك بأن ظلاً ما يتبعه، فبدأ يركض بكل قوة وسرعة دون أن ينظر خلفه.

بعد فترة من الوقت، أحس أخيراً بأن ذلك الظل قد اختفى، لكنه بعد أن وضع يديه على ركبتيه، وكنم أنفاسه المضطربة، ورفع وجهه إلى أعلى، رأى أمام عينيه جمجمة تسير وبياضها يلمع.

قفز "كيوكيتشي" إلى الخلف مذعوراً فسقط على مقعدته... مع ذلك فقد استطاع بالكاد أن يحبس صرخة كادت تفلت من حنجرته.

أدرك بعد لحظات، أن ما شاهده هو قوقعة بيضاء كبيرة حلزونية على شكل طفل صغير، يحملها حيوان "أم الخلول" ويسير بها، فظل يراقب "أم الخلول" وهي تمضي بالعرض أمام عينيه، متهادية حتى غابت بعيداً، بينما كان يحبس أنفاسه.

عندما خرج أخيراً من دغل أشجار الـ"مانغلوب"، كانت السماء، ناحية الشرق، قد تبدل لونها تماماً.

كان "كيوكيتشي" الذي ركض في الدرب بحذاء النهر، بينما كان يختفي بين مسافة وأخرى خلف الأشجار، يسعى في الوصول إلى الطريق المتجه إلى الجبل، وعندما وصل أخيراً إلى ذلك الطريق توقف عن الركض وجلس القرفصاء داخل حرش من الأعشاب التي انزلقت إليها قطرات الندى، وهي تتضح برائحة الخضرة التضررة المنعشة.

هنا قفز إلى خياله بوضوح منظر جثة ذلك الجندي الصريع، عندما كان "كيوكيتشي" يتردد على مدرسته القومية... كان حلمه، وحلم كل رفاقه من الصبية، ركوب الطائرة المقاتلة، وكان الجميع حين يستمعون إلى كلمة "فرق الطيران البحرية"، ذات الوقع السحري المؤثر، يتخيلون أنفسهم يلبسون زي الطيارين ويحبسون أنفاسهم.

تخيل "كيوكيتشي" أن يكون ذلك الشاب الصريع طيارا ماهرا فذا، حيث لم يكن بجثته جرح واحد ظاهر.

أحس "كيوكيتشي" بشعور جارف يدفعه نحو الرغبة في الذهاب مرة أخرى لرؤية الجسد المسجي لذلك الشاب فوق الرمال.

كان هناك أمر آخر يشعل حماس "كيوكيتشي" بشدة.. أجل.. كانت الرغبة في رؤية الجسم الأسود البارز من بين الصخور الخضراء.

في ربيع العام المنصرم كان "كيوكيتشي" يتباهى أمام زملائه من الصبية بقلم حبر، قال إنه هديته بمناسبة دخول المدرسة.

أخرج لفافة من الورق أمام زملائه المحيطين به، وفي تلك اللحظات التي بدأ فيها "كيوكيتشي" يكتب حروفا بخط بائس تعس، أخذ يحاول كبح جماح رغبة جارفة اجتاحتها، تدفعه إلى اختطاف ذلك القلم من يده، وقذفه إلى الأرض لكي يتحطم، لكنه عاد ليشعر بالإحباط الشديد لعدم استطاعته الإقدام على ذلك.

كانت لحظة واحدة تلك التي لمح فيها ذلك الجسم البارز، وهو يشعر بالقلق والتوتر من أن تلمحه عيون أبيه، وهو منهمك في تنظيف الجثة، ولم يكن لدى "كيوكيتشي" أدنى شك في أن يكون ذلك الجسم الأسود البارز، هو نفسه ذلك قلم الحبر الأسود! وربما كان هذا هو

السبب الحقيقي الذي دفعه إلى تحمل الأخطار دون أن يفكر في أي شيء.. فقط كان كل ما يريده هو الحصول على ذلك القلم بأي ثمن.

ظل "كيوكيتشي" جالسا القرفصاء، مترددا في اتخاذ القرار بالانطلاق نحو أعلى الجرف، وفجأة شعر بإحساس ملح بالتبول، فنهض واقفا وتوجه نحو شجرة وارفة بأسفة بالقرب منه، وتبول خلفها وفجأة توقف قلبه عن النبض حين ارتطم جسده بجسم أحد طيور الوطواط الكبيرة الحجم، صفع وجه "كيوكيتشي" بجناحه ثم انطلق مختفيا في السماء، التي غلب عليها اللون الأسود المائل للخضرة! أخذ "كيوكيتشي" يطرق بلسانه حانقا، وهو يتابع ذلك الوطواط الذي مضى بعيدا، ثم مسح يديه المبتلتين في جذع الشجرة، وتوقف متسمرأ، وهو يحرق في جذور الشجرة النافرة بطريقة لا شعورية.

ظهر أمام عينيه مدخل المقبرة التي فغرت فاهها، بعد أن سقطت الصخرة التي كانت تغطيها وتحطمت.

استطاع أن يميز خلال الظلام ملامح باهته لجمجمة وعظام ساق، برزت من فوهة جرة كبيرة موضوعة داخل المقبرة.

خيل إليه في تلك اللحظة، أن شخصا ما يهتف به، فقام "كيوكيتشي" بإخفاء الصرة في حرش من الأعشاب المتكاثفة، وانطلق يعدو باتجاه مصب النهر.

كان القمر الأبيض قد بدأ الهبوط بعيداً كشبح يندثر في سماء الفجر. أثناء ذلك كان "كيوكيتشي" قد ارتقى درجات السلم الحجرية حتى وصل إلى منتصف الجرف، حيث مكان المقبرة، وحينما وصل إلى البسطة الحجرية الأخيرة الموجودة أمام المقبرة، نام على بطنه، وأخذ يراقب صفحة البحر بحذر.

تسمر في مكانه منبطحا على الصخرة المفالطحة لا يستطيع الحراك وقد داهمه شعور مرعب بأن هناك عدداً لا يحصى من العيون، التي تشبه في لونها عيون ماعز الجبل تراقب حتى حركات أطراف أصابعه من خلال المناظير المكبرة البالغة الحساسية والدقة! كانت السماء تزداد زرقتها شيئاً فشيئاً، منذرة بشروق شمس يوم شديد الحرارة، وأثناء ذلك كان "كيوكيتشي" لا يزال منبطحا يلصق صدغه بصفحة البسطة الحجرية، بينما مد يده اليسرى يتفحص بها، ويتحسس الفراغات الموجودة بين الصخور الخضراء.

بعد فترة من الوقت، استشعر بأنامله ملمسا ناعما ما.

التقط بحذر شديد بأطراف أصابعه ذلك الجسم الناعم، واخذ يقربه أمام عينيه في ببطء. أجل.. كان ذلك الجسم قلمَ حبرٍ بيدو عليه أنه غالي الثمن، كان "كيوكيتشي" منبطحا على بطنه يحاول كبح جماح صدره الذي صار يعلو ويهبط بشدة وسرعة من فرط الإثارة، بأن يضغط صدره بكف يده، ويديه الأخرى كان يتحسس ذلك القلم الحبر الذي اكتشف بغطائه خطأ رفيعا ما محفورا. وحين رفع القلم إلى أعلى كي يتفحص الغطاء تحت الضوء الخافت، لاحظ وجود ما يشبه الحروف مكتوبة عليه، لكنه لم يستطع قراءة تلك الحروف التي لم تكن واضحة.

خمن "كيوكيتشي" أن يكون اسم ذلك الشاب، وحين طرأ له ذلك خاطر راودته رغبة جارفة مرة أخرى تدفعه للنظر إلى الجسد المسجي بجانبه.

وضع القلم الحبر في جيبه، ثم أراح رأسه في ببطء فوق راحتي يديه.

كان يشعر لحظتها أن رصاصا سوف ينطلق بين لحظة وأخرى، من اتجاه البحر كي يخترق صدغه، فرفع نصف جسده العلوى شيئا فشيئا وهو يلتصق بالجدار الصخري، واختلس النظر إلى داخل الحفرة، وأنفه يحتك بالحجر الأخضر الموجود عند مدخل الحفرة.

في بداية الأمر، تشكك في قوة إبصاره.. فلم تكن جثه الشاب هناك في مكانها فوق الرمال، وبدلا منها كانت تبدو هناك كتلة كبيرة سوداء هلامية المعالم! أدرك بعد لحظات ان تلك الكتلة السوداء الرفيعة الطويلة المرتفعة عن الأرض، قد بدأت التحرك بخطوات قصيرة متتابعة، محدثة صوت احتكاك خشن بالأرض. ظل يحرق بكل تركيز في تلك الكتلة التي ألفت ظلًا قائما خلال الفراغ الضيق المعتم للحفرة.

فجئ "كيوكيتشي" في اللحظة التالية بمخالب قوية، مثل مخالب الطيور تقفح حنجرته قفشا، وحين فتح عينيه عن آخرهما، مذعورا، وجد عددا لا يحصى من خيالات بعض الأحياء المجهولة الهوية، تقترب من وجهه مثل الفقاعات المتصاعدة. أجل.. كان ما ظهر أمام عينيه هو سرب من سرطانات البحر (الكابوريا)، غطت جثة الشاب الصغير. كانت أصداف ظهور سرطانات البحر المبتلة اللامعة وسيقانها الصلبة التي غطاها الشعر، وهي تحتك ببعضها تصدر صوتا أوحى لـ"كيوكيتشي" وكأن تلك الحيوانات تنهش جثة الشاب.

انقلب عدد من تلك السرطانات فوق الرمال، ثم عادت على أعقابها مسرعة باتجاه عمق الحفرة. في نفس الوقت ظهرت بدلا منها مجموعة أخرى من السرطانات لتتضم للسرب الرئيسي.

غطت سرطانات البحر الجثة تماما، بحيث لم تترك جزءا واحدا ظاهرا، تمتطى بعضها، بينما صارت تلوح في الهواء بأظفرها السميقة المتداخلة المتشابكة دون أن تتوقف للحظة واحدة.

من تحت ذلك العدد الكثيف من السرطانات البحرية، اندفعت موجة أخرى تئن وتزوم، وتخرج رؤوسها وأظفارها من بين أجساد زميلاتها. وفي اللحظة التالية، تساقطت كومة السرطانات البحرية، وتناثرت على الجانبين ليبرز من تحتها رأس جثة الشاب الصغير.

كان الرأس متأكلاً، مسوداً، تكاد لا تبدو منه ملامح الأنف ولا العيون، وكانت منطقة الفم الفاعرة المفتوحة المظلمة تتحرك وكأنها تهتف منادية شخصاً ما، وبينما كان "كيوكيتشي" يجلس هناك على مقعده فوق بسطة السلم الواسعة، سمع صوتاً مبوحاً يفلت من حنجرة الشاب الصغير.

هنا راح "كيوكيتشي" يزحف على درجات السلم متجهاً نحو أسفل الجرف، وعندما وصل إلى منطقة السفح أطلق لساقيه العنان، راضياً بكل قوته خلال الدرب بحذاء النهر، وهو يصرخ ملء حنجرته ناسياً أمر الجنود الأمريكيين.

بعد فترة من الوقت توقف "كيوكيتشي" عن الركض، وهو يلتقط أنفاسه، ثم التفت إلى الدرب الذي قطعه بحذاء النهر، وبينما كان يستشعر ملمس أصابعه مبتلة تلتصق بظهره، خيل إليه أنه يرى نفسه بنفسه من الخلف حين كان يركض منذ لحظات وهو يصرخ بأعلى صوته.

رفع "كيوكيتشي" عينيه إلى أعلى، يتفحص مطلع الدرجات الحجرية المؤدية إلى منتصف الجرف، فلمح على البعد فتحة المقبرة المكشوفة في العراء وقد اختفى نصفها خلف الجذور النافرة للشجرة الضخمة التي فردت أغصانها المتشابكة، خيل لـ "كيوكيتشي" وهو

يحدق في الظلام، أن عيني تلك الكتلة غير الواضحة المعالم البيضاء المشوبة بالزرقة... تلك العينان المفتوحتان عن آخرهما تحدقان فيه خلال الظلام الدامس الذي يشبه شكل التابوت، وحين شخص ببصره أكثر كي يتحقق مما يراه، لمح جسماً آخر شفافاً بعض الشيء يقبع جانب تلك الجمجمة الباكية.

كانت الريح التي هبت من ناحية البحر تزحف صاعدة ظهره المبتل بالعرق، ثم انزلت فوق جانب رقبته، لتصطدم في النهاية بمجموعه من زهور "وجه الظهر"، التي يقف بجوارها لتزهها بشدة، تخشب جسد "كيوكيتشي"، وهو يقف متأهباً للمجهول! وبعد لحظات لم يعد يسمع للريح صوت.

في ذلك الوقت من السنة، لم تكن الريح تهب من ناحية البحر، إلا اماماً، ولذلك فلم يكن يُسمع صوت الريح في الليل إلا نادراً، ولكن لم يكن بمستغرب أن يُسمع صوت الريح هذه الليلة بالذات.

في اللحظة التي شرع فيها "كيوكيتشي" بالتحرك ليأخذ موقفاً مختلفاً، يستطيع منه رؤية تلك الكتلة الغامضة الهلامية القابعة بجوار الجمجمة الباكية... أحس بوجود ظل شخص ما خلفه!

"من هناك؟"

صاح "كيوكيتشي" باتجاه ظل ذلك الشخص المجهول الذي يختبئ خلف دغل من الشجرات المتكاثفة بالقرب من الساحل. وهنا جاءه صوت رجل يقول:

"معذرة.. لم أكن أقصد أن أختبئ هنا"

ثم ظهر صاحب الصوت تحت ضوء القمر، وهو يفتح طريقه بين الشجرات والأعشاب بعصا طويلة يمسكها بيده. أخذ "كيوكيتشي" يراقب الرجل في حذر وترقب.. لقد كان السيد "فوجي إي" الذي زاره وقت الظهر.

"ماذا تفعل هنا بحق السماء؟"

شعر "كيوكيتشي" بالحنق، وكذلك بالخزي حين أدرك أن "فوجي إي" كان يراقبه من خلف الشجيرات طوال الوقت، فأحس بالسخونة تعترى أذنيه، حينما صاح معنفا "فوجي إي" بجملته السابقة.

"أبداً.. كنت فقط أقول لنفسي إن أضعف الإيمان أن أشاهد تلك الجمجمة الباكية ولو مرة واحدة".

كان "فوجي إي" يحافظ على رسم ابتسامته الناعمة الودود، وهو يعبث بعصاه، تلك التي أمسك بها لحماية نفسه من ثعابين "الحنش" المنتشرة بالجزيرة. لكن تلك الابتسامة أثارت حفيظة "كيوكيتشي" الذي بادره صائحا:

"هل تقوم بالتفتيش علي؟"

"أبداً، أبداً.. ليس الأمر كذلك".

وهنا ألقى "فوجي إي" بعصاه إلى الأرض، وشرع في الاقتراب.

"لا تقترب مني!"

توقف "فوجي إي" تلقائياً على إثر تحذير "كيوكيتشي" شديد اللهجة.

"هناك أمر ما أريد أن أستوضحه منك.. أمر ملح تماماً، إنه بخصوص ما إذا كانت تلك الجمجمة لمقاتل من أفراد الفرق الانتحارية أم لا؟"

"ماذا؟ أنا لا أريد الحديث معك، فأنتم يا أهل الجزيرة الكبيرة لا يحق لكم أن تطئوا هذا المكان.. وعليك أن تغرب عن وجهي قبل أن تلقى حتفك"

كان الاثنان يقفان في مواجهة بعضيهما، تفصلهما بضعة أمتار في الوقت الذي كانا يتبادلان فيه نظرات التحفز. وبعد لحظات أخذ "كيوكيتشي" يمسح العرق عن رقبته بكف يده مستغلاً، اللحظات القصيرة التي أشاح فيها "فوجي إي" بناظره، وأخذ ينظر ناحية النهر بوجه اعترته علامات الحيرة والاضطراب. وفي هذا الوقت كان "كيوكيتشي" يعقد العزم في سريرته على استخدام منجله كوسيلة للتهديد إذا استمر "فوجي إي" في جمع مادته الصحفية متجاهلاً إياه.

كان بخار الماء يواصل الصعود من داخل الجبل والغابات رغم حلول الليل، وهو ذلك الجبل وتلك الغابات التي أشعلتها أشعة شمس النهار، وكان مجرد الوقوف وسط تلك الرطوبة الساخنة، يجعل المرء يتسبب عرقاً. فيما تغطي الغيوم الكثيفة المتصاعدة من خط أفق البحر، السماء. ومع هبوب الريح التي دفعت أمامها تلك الغيوم اختفى ضوء القمر.

على حين فجأة، سُمع ذلك الصوت الشجن الحزين، وسط ذلك الظلام الدامس المفاجئ يسري خلال الأثير مثل ريح تعبر قادمةً من عالم بعيد، وكان ذلك الصوت الشجن يهبط الجرف في هدوء، ليمسح صفحة النهر، ويمضى بعيداً مع مجراه.

في هذه اللحظة اتجهت أنظار الرجلين بشكل تلقائي نحو أعلى الجرف. وفي اللحظة التالية ظهرت حشرة من حشرات اليراع المضيفة الفسفورية خرجت طائرة من تجويف عين الجمجمة، واقتربت

من الاثنيين وكأنها تسلك نفس مسار الصوت الغامض، ثم مرقت من بينهما، لتسقط في النهاية، وتختفي في تيار النهر!

هنا خبط "كيوكيتشي" كتف "فوجي إي" بعنف فترنح وكاد يهوي إلى الأرض، في نفس اللحظة التي صاح فيها "كيوكيتشي":
"اهرب بسرعة!"

ولما لم يتحرك "فوجي إي" من مكانه، وظل واقفا مشدوها صار "كيوكيتشي" يزرجه بشدة:

"ماذا تفعل بحق السماء- هيا أسرع بالهرب!"

في اللحظة التالية أطلق الرجلان سيقانهما للريح، وظل "فوجي إي" يتبع أثر "كيوكيتشي" بعد أن أفرعه صوت "كيوكيتشي" الخائف وعلامات وجهه المذعورة.

على قارعة الدرب، كان هناك عدد من الكتل الحجرية المتناثرة هنا وهناك، والتي كانت من خامة الحجر الجيري الأبيض، الذي يشبه عظام جثث بقيت على حالتها جيدة دون أن تؤثر فيها عوامل التعرية.

بعد لحظات من بدء الركض المذعور كان "كيوكيتشي" قد فقد نعليه المصنوعين من المطاط، فتشقق باطن قدميه، وصارت ذرات وشظايا الحجر الجيري التي نفذت خلال فتحات الجروح تختلط بالدماء وتتكلس محدثة آلاما مبرحة، ومع ذلك فلم يستطع التوقف عن الركض، أما "فوجي إي" الذي كان يحرص على ألا يفقد أثر "كيوكيتشي" وهو يعدو خلفه، فقد لاحظ "كيوكيتشي" عن بعد، وهو يكاد يتعثر وينكفي على وجهه من فرط السرعة والذعر فوق الجسر

المعلق، فصاح محذراً:

"احترس!"

قفز "فوجي إي" قفزة واسعة إلى الأمام، حيث استطاع أن يقبض بقبضته تلايبب زى العمال الذي يرتديه "كيوكيتشي" من الخلف، وجذبه من فوق سور الجسر حيث كان نصف جسمه العلوي قد برز للخارج، وحين التفت "كيوكيتشي" في هذه اللحظة، حيث انعكس في عينيه وجه "فوجي إي" شبيهاً تماماً بوجه الجندي الشاب الصريع.. شاحبا غير واضح المعالم!

في هذه اللحظة، اعترى أيضاً جسد "كيوكيتشي" شعور عارم متداخل بين خشية أن يقم على دفع "فوجي إي" بيده كي يسقطه من فوق الجسر ويقتله، وبين أن يضمه بكل قوة بشعور نابع من أعماق الأحشاء حتى أطراف أصابعه.. ذلك بينما كان يلهث بشدة، في اللحظة التالية قبض بشدة على أصابع يد "فوجي إي" الممسكة بكتفه، وقربها من صدره، لكنه عاد على الفور بعد ذلك ليدفع جسده النحيل بعيداً بكتلتا يديه، ليواصل الركض باتجاه منازل القرية التي لاحت عن بعد.

وصل "كيوكيتشي" إلى الطريق الإسفلتي الرئيسي الذي يحده من الجانبين سور حديدي مفرغ، وحين أشرف على القرية كانت قد لاحت منها بوضوح أضواء المنازل، فتوقف عن الركض، ثم جلس القرفصاء على قارعة الطريق.

ظل "كيوكيتشي" على حاله هذا يلتقط أنفاسه لمدة خمس دقائق تقريباً، لكن لم يكن يبدو أى أثر لـ "فوجي إي" حتى هذه اللحظة.

نهض "كيوكتشي" واقفاً على قدميه، وبعد أن قطع الطريق سيراً على مهل لوضع دقائق، شعر بأشجار الدغل على جانب الطريق تتحرك وتميل، وبعدها أحس بريح دافئة تحمل رائحة يود البحر، وهي تتخلل الدغل ثم تلامس قفاه من الخلف. بعدها مرت حشرة من حشرات اليراع فوق رأسه ثم اختفت على البعد مع صوت الريح الضعيف.

"إنها تبدو حقاً كما لو كانت تبكي!"

حينما ألقى "طوكوايتشي" بهذه الكلمات على "فوجي إي"، أوماً الأخير برأسه مصداقاً على كلامه، ثم نظر إلى ساعة يده.

كانت سماء الشرق التي بدأ يشوبها ضياء خافت تنعكس على زجاج لوحة الساعة التي أمالها "فوجي إي" ليميز العقارب والأرقام.

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف بقليل. في الليلة الماضية وبعد أن انفصل "فوجي إي" عن "كيوكتشي" وتركه وحده عاد إلى الفندق الشعبي الصغير الذي يببب به، دون أن تراوده الرغبة في الذهاب إلى الجرف مرة أخرى.

كان "إيزومي" جالساً هناك وحده يحتسي البيرة أمام المروحة الكهربائية في تلك الغرفة التي تشبه كشك مواقع البناء، والتي كانت حارة رطبةً مكتومة الهواء.

حين لمح "فوجي إي" يدخل من الباب عاجله:

"أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة"

"كان الحر لا يحتمل.. فقمتم بالتنزه في المنطقة القريبة"

"آه إنه مكان بائس لا يطاق.. ليس هناك مكان يتسلى به المرء سوى ذلك البار المتواضع التعس. من السذاجة المطلقة أن تفكر بجذب السياح إلى هنا".

"ليس لك أن تقول هذا"

هكذا وبخه "فوجي إي" بنبرة هادئة، ثم خلع سترته وتناول منشفته، ثم قال:

"عساك ستأخذ دُشاً"

"أجل"

"ما بال صاحب هذا الفندق التعس لا يكاف نفسه بتركيب جهاز تكيف صغير. إن العرق يتصبب مني بمجرد الجلوس. آه... لقد تذكرت شيئاً، لقد جاءت في الليل فتاة، قالت إنها من طرف السيد "إيشيكاوا"، وطلبت منا أن نخرج في الصباح، في وقت مبكر عن موعدنا المحدد لنأخذ بعض اللقطات. أبلغتني أن العمدة استطاع أن يقنع عجائز القرية، وأخبرتني أنه سيحضر إلينا هنا في الخامسة فجراً"

رد "فوجي إي" رداً قصيراً على "إيزومي"، ثم توجه نحو غرفة الدُش.

كان الإرهاق قد تملك من جسده كله، وبالرغم من أنه اغتسل بالماء الساخن إلا أن الإرهاق قد تملك منه ولم يغادره. وبعد أن لبس روب الحمام، فرد المنشفة الكبيرة فوق "إيزومي" الذي بدأ ينعس وهو يمسك بمجلة من مجلات الكاريكاتير، ثم أطفأ الأنوار.

كان يشعر بألم في صدره من أثر دفعة "كيوكيتشي". لم يمر وقت طويل حتى أقنع نفسه بعدم التفكير في هذا الأمر، وحاول جاهداً أن

يغرق في النوم.. غير أنه لم ينجح، وظل هكذا حتى أتاه صوت "طوكوايتشي" مناديا عليهما، وهنا شعر أن التعب والإرهاق قد زادا عن ذي قبل.

"هيا استيقظا.. لقد حان الوقت للخروج"؟

كان "فوجي إي" يطالع الجرف بعينين زائغتين في الوقت الذي أخذ فيه "طوكوايتشي" يهمس في أذنيه منفرج الأسارير. كان "فوجي إي" خلال تلك اللحظات قد اعتراه شعور بالإحباط.

كان "فوجي إي" قد توظف بشركة للبحث الإذاعي بعد انتهاء الحرب بسنوات ثلاث، وبعدها انتقل للعمل بمحطة تليفزيونية أنشئت حديثاً، ومنذ أن صار يتولى إعداد بعض البرامج، كرس نفسه في سبيل جمع مواد مرئية وثائقية تناولت معالجة الجراح التي خلفتها الحرب، من خلال مروره باليابان طويلاً وعرضاً، دون ترك مكان ما بقدر المستطاع.

على إثر ذلك نال استحسان رؤسائه وتقديرهم، واستطاع الحصول على جوائز عن بعض برامجه التي أعدها وأخرجها. لكنه في السنوات العشر الأخيرة داهمه شعور بالإحباط والملل، يزداد مع الأيام حتى خروجه لجمع الخطة لمجرد طرحه اقتراح منطقة جزيرة "أوكيناوا" لتكون مشروع برنامجه الجديد. كان يتوقع من زملائه رأياً مفاده:

"قطعنا شوطاً طويلاً في عرض كل ما يخص معركة "أوكيناوا".. بحيث صار الموضوع مكرراً مملأً، ألا ترى أن "هيروشيما" أفضل من حيث أنها لا تزال مادة خصبة. سمعنا أن حركة السلام ومعارضة انتشار السلاح النووي سوف تنتشط خلال شهر أغسطس (آب) القادم مع الاحتفال بذكرى إلقاء القنبلة الذرية!"

كانت البرامج الوثائقية، التي تناولت بوجه خاص قضايا اجتماعية مختلفة، لاقت شعبية كبيرة لفترة ما، لكنها صارت في أزمة شديدة من انخفاض شعبيتها بحيث صارت، تبحث جاهدة عن ممولين لها، بعد أن انخفضت ميزانيتها، وأبعدت لتذاع في إطار برامج منتصف الليل، ذات نسب المشاهدة المنخفضة.

استطاع "فوجي إي" بعد جهود مضنية أن يحصل على موافقة المسؤولين عن المحطة التلفزيونية بعد إلحاح مستمر، وبعد أن أقنعهم إن معركة "أوكيناوا" لا يمكن إسقاطها من البرامج الخاصة بمناسبة ذكرى انتهاء الحرب، لكنه بمجرد الانتهاء من الحصول على تلك الموافقة شعر، وكأنه انتهى لتوه من جمع مادة معقدة، استغرقت وقتاً طويلاً فأصيب بالتعب والإرهاق.

كان "فوجي إي" يتوقع أن يكون هذا آخر عمل له في حياته العملية. أجل.. هكذا كان يتم في سريرته.

كان "فوجي إي" يقنع نفسه بأن شعوره بقيمة الحياة، يكمن في شعوره بالرضاء عما يقوم به، حتى لو استغرق منه ذلك وقتاً طويلاً، وحتى لو لم يكن ذلك مرتبطاً بترقيته في الشركة، لكنه بمرور الزمن ودون أن يشعر اكتشف أنه أقرب إلى بلوغ سن المعاش.

"السيد رئيس الحي.. هل اشتركت بالفعل في معركة "أوكيناوا"؟"

طرح "إيزومي" هذا السؤال على "طوكوايتشي" بصوت خال من الحماس، ويوحى بأنه يطرحه كنوع من الواجب أو قتل الملل.. ذلك بينما كان يغالب الرغبة الملحة في التناوب! وهنا بدأ "طوكوايتشي" الحديث متفخراً كعادته.

وقال: "ألا يغريك منظري هذا.. لقد كنت واحداً من القوات الانتحارية الإمبراطورية!".

"كان عمري لا يتعدى الخمسة عشر عاماً. كنت أختبئ داخل إحدى المغارات الصخرية في جبل بحذاء الساحل، وأنا ألف حول خصري حزاماً ناسفاً، وكنت متحفزاً للاصطدام بأي دبابة تهاجم المكان، لكن دبابة واحدة لم تقترب من موقعي!"

ثم استرسل:

"لو حدثت وجاءت واحدة من الدبابات لقفزت إليها دون تردد... أجل هكذا كنت سأركض، مخفضاً رأسي لأقفز تحت جنزير الدبابة، لأن جنزير الدبابة لو أصابه العطب تعجز الدبابة عن الحركة. إنها حركة من حركات الفصائل الفدائية البرية"

"حقاً؟ يا له من شيء رائع، إنني أعتقد أن كل أبناء "أوكتيناوا" قد مروا بمثل تلك التجربة"

"أجل أجل.. أستطيع أن اكتب كتاباً كاملاً من خلال الحكايات التي أعرفها أنا بمفردي"

"حقاً؟ أخبرني بمثل ما"

وهنا شرع "إيزومي" في إخراج مفكرته الخاصة من جيبه.

"هل أعددت جهاز تسجيلك؟"

كان "إيزومي" يجتهد في كبح جماح استيائه، لكن مشاعره تلك صارت واضحة في عيون "طوكوايتشي" الذي أحس أن فرصته في الدعاية لنفسه قد ضاعت، فصار ينظر شذراً نحو "فوجي إي"، خاصة بعد أن أعاد "إيزومي" مفكرته إلى مكانها في جيبه!

وفجأة حول "طوكوايتشي" مسار الحديث:

"بالمناسبة.. إن صاحب تلك الجمجمة الباكية كان أصلاً من الفرق

الانتحارية!"

كان "طوكوايتشي" يثرثر هنا وهناك أمام كل من يقابله بتلك الحكاية، ولما لم يكن هناك من يعيره اهتماماً، أخذ يتجول هنا وهناك دون هدف محدد حتى التقى بـ"فوجي إي" حين اختلس "طوكوايتشي" نظره إلى الاجهزة التي يحملها "إيزومي" معه فبدأ الحديث مبتسماً بصوت خفيض.

كان "فوجي إي" قد علم مسبقاً- بعد البحث والاستقصاء- أن العظام الموجودة بالمقبرة المكشوفة للعراء لمقاتل من الفرق الانتحارية، وكان هذا هو السبب الذي دفعه لاختيار هذه القرية لجمع مادة البرنامج. تذكر "فوجي إي" رفاقه حين كانوا يطيطرون تباعاً نحو "أوكيناوا" في شهر مايو (آيار).

"ألا تخرج لدقيقة هنا!"

جاءه ذلك الصوت المبحوح هامساً.

بعد أن غادر "فوجي إي" فراشه بقليل، كان قد خرج من الثكنة العسكرية على أثر دعوة "كانوو" له. أغلب الظن أن معظم الرفاق بالثكنة لم يستطيعوا أن يتذوقوا طعم النوم، لأنهم كانوا يفكرون بأمر مهمة الهجوم القتالية المقرر القيام بها صباح اليوم التالي، وربما لهذا السبب لم يؤنبه أحد على خروجه من أسوار الثكنة.

كانت تلف المكان ريح حارة رطبة، والمشهد العام يوحي بوشوك هطول المطر، حيث تغطي الغيوم الكثيفة المنخفضة السماء، والثكنة العسكرية التي أقيمت يخيم على نوافذها السكون.

داخل تلك الثكنة، يقف الجميع في قلق آخر ليلة، ومع تلك الحرارة المصحوبة بالرطوبة في هذا الليل الطويل. كانت أجسادهم تفوح منها رائحة العرق العطن، وكان الجميع يعلمون أن احتمالهم لتلك الرائحة الكريهة النفاذة أمر لن يطول مع حلول الفجر.

تسلل الإثنان من بين مباني الثكنة العسكرية، وسارا على مهل وفي حذر يقطعان الحديقة الخلفية. يسير "كانوو" متأخرا عن "فوجي إي" بخطوتين أو ثلاث، وكان "فوجي إي" يستمتع بالإصغاء إلى صوت حذائه وحذاء رفيقه الذي كان يتردد صدهاء في أرجاء المكان مع الارتطام والاحتكاك بالزلط الذي يفترش الأرض، بينما يتأمل قدميه وهو يسير في خطوات مننظمة.

كان يشعر في نفس الوقت أن ذلك الصوت الذي لا يعنى شيئا، يعطيه إحساساً بالأمان والطمأنينة بعض الشيء وسط يوم مشحون بالتوتر والقلق. لم يكن قد مر شهران منذ أن تعرف برفيقه "كانوو"، ولكنه منذ أن وقعت عيناه على وجهه لأول مره شده الاهتمام بوجوده إحساس غامض ما يعكس البرود والهدوء اللذين لا يليقان بذلك الوجه البريء الأبيض، الذي لم تنزل تشوبه علامات الطفولة البريئة.

كان يبدو أن "كانوو" ليس لديه أى اهتمام بما يجرى داخل الكتيبة ولا بأفرادها، ولا بالتدريب الذي يقومون به، ولا حتى باليوم الذي تحدد للقيام بالهجوم الانتحاري.

كان هؤلاء الأفراد الذين تم نقلهم من كتائبهم ليدخلوا هذه الكتيبة الخاصة الانتحارية، يتم الاعتناء بهم، وبمطالبهم مقارنة بالأفرع الأخرى من الجيش، ومع ذلك كان الأمر مختلفا مع "كانوو". اجل..

كان يتم ضربه والتكيل به بصفة شبه يومية من الضباط وضباط الصف الأكبر منه رتبة، إلا أن "كانوو" لم يكن يظهر على الإطلاق أي علامة أو تعبير على وجهه يعكس شعوراً بالألم!

بل إنه على العكس دائماً، يلوى شفثيه الدقيقتين وكأنه يبتسم ابتسامةً ساخرة تستخف بمن هم حوله.

كان "فوجي إي" يهتم بسماع ما يقال من الرفاق الآخرين عن "كانوو" داخل المعسكر، لكنه لم يعرف الكثير عنه سوى أنه دخل معه الجيش ضمن دفعة المجندين إجبارياً في نفس الفترة تقريباً، بعد أن كان طالباً بجامعة "كيووطو".

المرّة الأولى التي تبادل فيها حديثاً معه بعد أسبوعين، حين كان يقف بالمرحاض للتبول قبل الذهاب للنوم، فوجئ بشخص ما يضايقه من الخلف، وحين حاول جاهداً دفع تلك اليد التي تدفعه من الخلف، فإذا بجسم بارد ما ينحشر داخل فمه. كان موسى للحلاقة!

بلع "فوجي إي" ريقه من الرعب والصدمة، وتوقف تماماً عن الحركة، ثم أتاه صوت من الخلف يتوعده:
"لا تنتظر إليّ مرّةً أخرى بهذا الشكل!"

كان ذلك الصوت صوت "كانوو"، وبعد أن ترك ذلك الشخص ذراعه من الخلف وصار حراً طليقاً، التفت "فوجي إي" إلى الخلف ينقح المكان حوله في الظلام، ولكن "كانوو" كان قد اختفى عن الأنظار.

بعد ذلك، كلما كان "فوجي إي" يصادف "كانوو" في طريقه يشيح بوجهه بعيداً، ويحرص على ألا ينظر إليه على الإطلاق.

لكن بعد مرور عدة أيام، حينما كان يسير "فوجي إي" مطرق الرأس داخل المعسكر، استوقفه صوت ما يناديه باسمه، وكان صاحب ذلك الصوت هو "كانوو" نفسه!

ودون أن يستوعب "فوجي إي" ما يحدث، نظر إلى وجه "كانوو".
"إنه أمر الهجوم!"

نطق "كانوو" بتلك الجملة القصيرة، وهو يضحك ملء شذقيه بوجه برئ تماماً أدهش "فوجي إي". ومن فرط دهشته ظل متمسراً في مكانه عدة دقائق دون أن يتحرك.

حينما أفاق من المفاجأة حاول أن يناديه ليستوقفه، لكن الأخير كان قد أعطاه ظهره، وبدأ يسير مبتعداً عنه موحياً إليه بامتناعه عن الرغبة في الحديث إليه.

بعد ذلك بثلاثة أيام، علم "فوجي إي" بصدور الأوامر إلى مجموعته بالانطلاق بالطائرات نحو "أوكرانيا" في عملية هجومية.

كان ذلك اليوم هو السابع عشر من مايو (أيار) عام 1945.

شغل "فوجي إي" ومعظم رفاقه الأيام القليلة المتبقية بترتيب متعلقاتهم، وكتابة رسائلهم الأخيرة. لكن "كانوو" كان الوحيد الذي لم يقم بذلك، فكان يقوم بقراءة بعض الكتب أو بالتتزه داخل طرقات المعسكر.

حاول "فوجي إي" أكثر من مرة أن ينادي عليه، ليتحدث معه، لكنه كان دائماً في اللحظة الأخيرة يقلع عن ذلك، حين تلتقي عيناه بعينه!

بعد مرور يومين آخرين.. وحيث كان صباح اليوم التالي هو موعد وجود "كانوو" بين الحاضرين.. تصنع الذهاب لقضاء حاجته بالمراحيض، وخرج من الحلقة التي صنعها رفاقه بينما صاروا ينشدون الأناشيد الحماسية الجماعية.

أجل.. كان "فوجي إي" يريد محادثه "كانوو" قبل الخروج في المهمة الأخيرة. ومع ذلك فلم يكن يرتب في ذهنه حواراً معيناً. فقط.. حين أدرك "فوجي إي" أنه مع حلول ساعة الصفر في الصباح الباكر، لن يعود أي منهم مرة أخرى إلى هنا، ولن يصير له وجود بهذه الدنيا.. أحس بأنه لن يستطيع احتمال إنهاء عمره دون تبادل كلمات ذات نَقل ومعنى مع أي شخص. كان يعلم تماماً أنه لو تحدث إلى "كانوو"، فإن الأخير سيتجاهله ولن يرد عليه.

عاد "فوجي إي" إلى فراشه بالتكنة، وكتب بعض الخطابات واليوميات، وحين جاءه أحد الرفاق يدعوه للانضمام إلى مجلس الخمر الأخير، اعتذر له لشعوره بالغبثان، وأنه سيخلد إلى النوم، وظل هناك بانتظار ظهور "كانوو"، ولكن الرفاق صاروا يعودون تبعاً إلى عنبر النوم وهم سكارى، وينشدون الأناشيد العسكرية الحماسية، وظل "فوجي إي" هناك داخل فراشه يغالب النعاس في تلك الليلة الحارة الرطبة الصعبة الاحتمال، لكن "كانوو" لم يظهر أبداً، وفي نهاية الأمر غرق "فوجي إي" في النوم، بينما كان يعاني من شعور قاتل بالوحشة.

مع انتصاف الليل، كان الصوت الذي أيقظه هامساً هو "كانوو" والذي صار يهز جسده بشدة لإيقاظه.

فجأة، تناثرت أمام عينيها من الأرض ذرات حمراء من النار. كان "كانوو" قد داس بقدميه عقب سيجارة لا تزال مشتعلة، وكأنه فقاً حشرة صغيرة، لكنه لم يتوقف، واستمر في سيره، وهو يقول:

"لا تلق بالاً!"

في هذه اللحظة كان "كانوو" يضحك ساخراً من "فوجي إي" الذي انحنى ليلتقط عقب السيجارة المشتعل. بعد أن أطفأ "فوجي إي" السيجارة دفسها في جيبه دون أن ينطق بكلمة واحدة.

حين وصل الاثنان في النهاية إلى أسفل جرف عالٍ يقع خلف المعسكر، وقف الاثنان كنفأ بكنف وهما يطالعان أعلى الجرف. كانت أفرع أشجار الصنوبر الباسقة وسط الجرف يصدر عنها صوت خفيف مع هبوب بعض الريح.

وفجأة همس "كانوو":

"هل تتسلق معي هذا الجرف"

نظر "فوجي إي" بتمعن إلى وجه زميله من الجانب متحيراً.. لكنه لم يستطع أن يميز تعبيرات وجهه جيداً، إلا أنه استطاع أن يستشف إحساساً ما بالقلق والتوتر لم يكن يعهده مع ذلك الشاب الذي كان دائم التهكم والاستخفاف بكل شيء.

"ألا تخاف؟"

قال "فوجي إي" هذه الكلمة وهو يشعر بالخوف والرعب من أن يخطئ جنود الحراسة الفهم فيظنون أنهما يحاولان الفرار. وكأنما لم يسمع "كانوو" تلك الكلمة التي نطق بها "فوجي إي"، فقد سار بخطى ثابتة متوجهاً نحو الجرف، وبدأ يمسك بالأشجار والأفرع البارزة من الحائط الصخري للجرف، وشرع بالتسلق، ثم بدأ يصعد متسلقاً بسرعة ومهارة شديدتين.

وهنا هتف به "فوجي إي":

"إذا اكتشفك الحراس فلن تمر الامور بسلام"

التفت إليه "كانوو" وهو يواصل التسلق بوجه هادئ بارد تماماً

وقال له:

"بماذا تهذي الآن؟ لم يعد ما تقوله يفيد بشيء يا رجل"

صمت "فوجي إي" تماماً بعد أن فاجأته كلمات "كانوو". كانت تلك

الكلمات قد اخترقت صدره بعمق.

انفجرت من أعماق ذلك الصدر شحنة رهيبية من الغضب والحنق

كان يكتمها منذ فترة طويلة، ولم يشعر بنفسه في اللحظة التالية إلا وهو

يبدأ في تسلق ذلك الجرف الشاهق الفجائي الوعر، بينما كان يتمتم في

سريرته بكلمات لا يعرف لها معنى.

أخذت الريح التي زحفت مع التواءات شجيرات الدغل وكأنها

ثعابين تتلوّى.. أخذت تعلق بجسد "فوجي إي" الذي تصبب عرقاً.

وأثناء صعوده وتسلقه ذلك الجرف القائم الخطر كان يزيح بذراعه عن

طريقه تلك الأعشاب البرية الطويلة المدببة الأطراف الباسقة في اتجاه

السماء، وبين وقت وآخر، وعلى الضوء المبهر الذي كان يسببه لمعان

البرق.. يرى الغيوم التي تكسو السماء فوقه واضحة جلية. وكانت تبدو

تلك الأعشاب في عينيه وكأنها مخلوق ينمو بسرعة شديدة على غذاء

يمتصه بشراهة من بخار الماء الذي يتصاعد من جثث الجنود الذين

يموتون يومياً بأعداد كبيرة!

في تلك اللحظة خيل لـ "فوجي إي" أن إحساساً ما يداهمه بأن

جسده قد تحول إلى خلايا وذرات دقيقة متناثرة تنتشر في أرجاء

المكان، فصار يحاول جاهدا كبح شعور قوي بالرعب والقلق، أجتاح جسده كله.

تذكر في اللحظة التالية كلمة "الروح الطافية" التي استخدمها في الرسالة التي كتبها ووجهها إلى أستاذه بالجامعة، بحيث أن تلك الكلمة كانت تلح على ذهنه ولا تفارقه أبداً، وهو يواصل ألتسلق. وحين نظر إلى جانبه رأى "كانوو" وهو يحاول جاهدا رفع نصف جسمه الأعلى في منطقة بالغة الوعورة، فمد ذراعه، وأسند بعضده كي يساعده على الصعود، وحين نظر إلى أسفل الجرف في تلك اللحظة شاهد البحر المتسع تحت قدميه، وكذلك المنظر البانورامى لمنازل المدينة البعيدة.

كانت تلك المدينة التي اطفئت أضواؤها، تظهر في عينيه كما لو كانت تذكره بمنظر مد البحر الذي يعج بعدد لا يحصى من الحيوانات البحرية التي غطست بأجسادها داخله.

في اللحظة التالية، أخذ يتخيل وجهي أبيه وأمه. كان يتخيلهما يختبئان الآن في حفرة طينيه مثل زوج من سرطان البحر، بينما لا يفعلان شيئاً سوى التنفس في وهن، وقد تملك منهما الرعب.

أخرجه صوت "كانوو" القوي المفاجئ من شروده:
"ألا تشعر بالملل؟"

كان "كانوو" قد التوى بجسده لينظر إلى "فوجي إي"، بينما كان يجلس على مقعده على حافة صخرية بالجرف.

لم يستطع "فوجي إي" أن يرد بكلمة واحدة على "كانوو"، واكتفى بأن يردد في سريره نفس الجملة التي سمعها الآن.

أجل... كان هذا السؤال بالنسبة له مخيفاً ومرعباً عن غيره من الأسئلة.

جاهد "فوجي إي" خلال الأسبوع الأخير أن يبحث عن كل المعاني الممكنة لموته الوشيك، وأخيراً لم تكن الحصيصة تتعدى هذا الخواء. أدرك أن جميع من حوله من الرفاق يخشون أن يواجهوا أنفسهم بحقيقة هذا الخواء واللامعنى، وأنهم كانوا يتحايلون على أنفسهم، ويغالطون شعورهم بكتابة الرسائل والخواطر الأخيرة.

أجل.. فكم من مرة كبح "فوجي إي" فيها نفسه من الانزلاق وراء رغبة ملحة متأججة داخل صدره، لكي يقطع حجرة كل هؤلاء الذين يتشدقون بجملة: "من أجل الإمبراطور المفدى".

كان يعترى صدره شعور متزايد بالحنق والكرهية لا يستطيع أن يجد له متنفساً كي يفجره فيه. شعور ينهش صدره وأحشائه نهشاً، ثم عاد "فوجي إي" ليسخر من "كانوو" داخل نفسه، فصار يقول في سريرته:

"هل هذا كل ما عندك؟ ألا تشعر بالملل!"

أدرك أن "كانوو" يتخايل بكونه متمرداً وساخراً من كل شيء، لكنه في الحقيقة لا يزيد عن كونه أحد الخائفين الملتاعين المذعورين!، أجل.. لقد شعر "فوجي إي" للمرة الأولى بضالة "كانوو" أمام عينيه، وأنه أضعف كثيراً منه هو نفسه، وشعر بالشفقة على نفسه لأنه ظل يتصور "كانوو" بطلاً حتى لحظات عمره الأخيرة.

عاد "كانوو" ليصيح به:

"هل أجد معك عود ثقاب؟"

دس " فوجى اى" يده فى جيبوه باحثاً عن تقاب، وعندما عشر
أخيراً على قلبه تقاب وأخرج منها عودا وأشعله.. انطفأت شعلته على
الفور مع هبوب الريح. اقترب "كانوو" بوجهه منه وهو يضع سيجارة
بين شفثيه. وعلى بصيص ضوء شعلة التقاب الثانى بدا وجه "كانوو"
طفولياً مبالغاً فى براءته. وهنا شعر "فوجى اى" بشعور مباغت بالألم
والتأثر، فأشاح بعينيه بعيداً. شعر بأنفاس "كانوو" الساخنة تلهب أذنه
فى نفس اللحظة التى همس فيها "كانوو" بشيء ما فرد عليه "فوجى إي"
منزعجاً:

"ماذا... ماذا قلت؟"

فى اللحظة التى التفت فيها نحو وجه "كانوو" لامس شفثيه شيئاً
طري!

فى نفس هذه اللحظة التى راوده فيها هذا الشعور، فوجئ "فوجى
إي" ببدين تمسكان بياقته بشدة، وفى اللحظة التالية وجد نفسه يطير
بعيداً فى الهواء.

أحس بصوت دوي شديد صادر عن تحطم جزء من جسده، أدرك
أن جسده ارتطم بشدة بجذع شجرة من أشجار الصنوبر الباسقة فى
منتصف الجرف.. تلك الشجرة التى تمايلت واهتزت بعنف من شدة
الارتطام.

كانت رائحة عصارة الشجرة النفاذة قد دغدغت خياشيمه، فوجد
نفسه، كرد فعل تلقائى، يتشبث بأحد أفرع تلك الشجرة، لكن الفرع ما
لبث أن انكسر، فوجد نفسه يسقط فى بحر من الظلام الدامس العميق.

حين استرد "فوجى إي" وعيه لم يكن هناك أى أثر لـ"كانوو"،
كذلك لم يجد أحداً بجانبه للاطمئنان عليه.

هكذا نطق الطبيب العسكري بكلمات تشوبها السخرية. ثم استطرد الطبيب:

"كنت محظوظا حين استقر جسدك فوق فرع من أفرع شجرة الصنوبر، وإلا لكنت الآن في عداد الأموات!"
مرت عدة أسابيع، قضاها "فوجي إي" بين الغيبوبة والإفاقة يعي جيداً ما يدور حوله.

كان يرقد في فراشه، بأوامر بالراحة التامة بعد أن أصيب بكسور مختلفة في ذراعيه وساقيه، بالإضافة إلى الآلام الشديدة بفقرات ظهره. وعلم من جنود الشرطة العسكرية الذين جاءوا لاستجوابه، أن زميله "كانوو" كان تحت التحقيق حول سبب سقوطه في حادث.

لم ينكر "فوجي إي" ولم يقر بشيء.. فقد ظل محتفظاً بصمته.
كان واضحاً أنه متهم بتعمد القفز من فوق الجرف لكي يتهرب من أوامر الهجوم الانتحاري، ولذلك كان يدرك تماماً إنه لن يستطيع الإفلات من تقديمه إلى محكمة عسكرية بعد سلسلة من التحقيقات الصارمة فور تمانئه للشفاء، لكن هذا الأمر لم يكن يشغله أو يقلقه.

كان يقضي معظم اليوم في الاستغراق في النوم، ولم يظهر الامتعاض أو التأفف على وجهه أبداً، رغم معاملة الضابط الطبيب الخشنة والرعاية كلما جاء للكشف عليه، فكان يكتفي بالتحديق في سقف الغرفة المتسخ الكئيب.

مع حلول منتصف شهر يوليو (تموز) كان "فوجي إي" قد انتقل إلى إحدى مستشفيات المدينة.

يوم انتقاله إلى ذلك المستشفى كانت آخر جملة رشقها به ذلك الطبيب الضابط هي:

"قد تعيش بقية عمرك بشلل نصفي!"

كانت نظرات الطبيب الباردة التي تتفحصه في تلك اللحظات، تكاد تتطوق بالرغبة في ان يحل به ذلك الأمر.

بعد مرور ثلاثة أشهر غادر "فوجي إي" المستشفى، واستقبله والده في بيته، لكنه ظل ثلاث سنوات كاملة راقداً في فراشه، معزولاً عن العالم القابع خارج غرفته، لا ينتابه أي رد فعل تجاه ما يحدث هناك.

في يوم من أيام شهر مايو (آيار) خرج "فوجي إي" لأول مرة من البيت يجوب شوارع المدينة بحثاً عن عمل يرتزق منه. كان أول عمل يلتحق به هو حمل الأمتعة، لكنه أصيب بانكاسة أخرى بسبب ذلك العمل الشاق، فلم يستمر بالعمل أكثر من ثلاثة أشهر.

بعدها انتقل "فوجي إي" بين عمل وآخر حتى استقر أخيراً بمحطة التلفاز تلك، التي يعمل بها حتى الآن.

"أراك قد تأخرت اليوم عن أي يوم مضى!"

هكذا نطق "طوكوايتشي" بهذه الكلمات وهو ينظر إلى ساعة يده.

كانت أشعة الشمس الذهبية المتسللة من خلف أطراف السحب المتزاحمة الواطئة عند خط الأفق، قد بدأت تتسلل وتنتشر في هذه اللحظات.

"لأن طقس اليوم على غير ما يرام!"

هكذا رد "فوجي إي" بنبرة توحى وكأنه يحاول تبرير سبب تأخيره عن الموعد هذا اليوم. كان "فوجي إي" يتابع مسار النهر بعينه، ثم أخذ

ينظر بعيداً، ويتأمل مياه الخليج الذي اهتزت صفحته مع نسيم الصباح هناك عند مصب النهر.

كان "فوجي إي" يكاد يوقن بأن زهرة شباب "كانوو" ورفاقه من الطيارين قد سقطت في مكان ما من أرض ذلك البحر الواسع.

كلما وطأ "فوجي إي" بأقدامه أرض هذه الجزيرة من أجل جمع مادة إعلامية ما، يقطع الجزيرة طولاً وعرضاً بحثاً عن أى وثائق أو سجلات خاصة بأفراد فرق الطيران الانتحارية (الكامي كازيه)، وفي نهاية الأمر استطاع الوصول إلى بعض متعلقات عدة أفراد منهم. كانت أمواج البحر قد دفعت بها إلى شواطئ الجزيرة، لكنه لم يستطع الوصول إلى أي اثر لـ"كانوو".

كانت شبورة الصباح الصاعدة من النهر قد أخذت ترحف في ببطء وهدوء على ضوء عود الثقاب هناك فوق الجرف، فكانت تلك الذكريات تكاد تدفعه إلى الجنون.

كانت شفتا "كانوو" قد تحركتا حركة خفيفة بصوت خفيض مكتوم بكلمات ما، لكنه لم يستطع أبداً أن يجد لتلك الكلمات تفسيراً!

كان "فوجي إي" يسائل نفسه عما إذا كان "كانوو" حقا قد دفعه بيديه، حتى أنه كاد يشك في أنه قفز في ذلك الوقت طواعية ليهرب من الموت في العملية الانتحارية المرتقبة، في مقامرة غير محسوبة.

أجل.. كان هذا التساؤل يلح عليه ويراوده بين وقت وآخر. وعلى حين فجأة واجه نفسه بسؤال كان يتهرب منه:

"ألم ترتب كل ذلك لا شعورياً؟"

شخص "فوجي إي" ببصره في الخليج الصغير، حيث تتصادم
الأمواج في هدوء وبطء، بينما ألح عليه هذا السؤال.

أجل. راوده شعور ما، ومن أجل هذا فعلى العكس كان "كانوو"
يريد أن يحميه ويبقيه على قيد الحياة.

حاول "فوجي إي" أن يعتمر ذاكرته ليسترجع الكلمات الأخيرة
التي سمعها منه. لكن كل الكلمات التي تذكرها لم يكن أي منها يعني
شيئاً واضحاً بالتحديد.

كان كل ما يذكره هو عيون بعض الرفاق التي احمرت،
واحترقت من السهاد والأرق والحنق، وهي تحمق فيه، وهو محمول
على النقالة إلى نقطة الإسعاف.

أمام تلك العيون اكتشف نفسه وحقيقته إلى الأبد، فعقد العزم في
قرارة نفسه على ان يستمر في تعقب كل ما سجله زملاؤه من أفراد
الكتائب الانتحارية قبل أن يموتوا، لكي ينقل للناس ما خبئوه في
صدورهم في ساعاتهم الأخيرة، وما قالوه.

آمن "فوجي إي" أن من واجبه كواحد أنقذه "كانوو" من الموت، أن
يضع المشهد الأخير لزملائه الذين ماتوا تحت الضوء.. ذلك المشهد
الذي استمر لساعات عند الخط الفاصل بين الحياة والموت، كذلك كان
يوقن أن كل الوثائق الإعلامية التي صورها كانت من أجل التكفير إلى
الأبد عن ذنبه الذي جعله يقامر من أجل الاستمرار في الحياة، ويخذل
رفاقه ويتركهم يذهبون إلى الموت بدونه.

كان هناك خاطر يداهمه ويقض مضجعه باستمرار، وهو أن كل ما حدث كان لا يتعدى أن يكون كذبة كبيرة. لقد حدث "فوجي إي" نفسه:

"فقط... لا زلت على قيد الحياة، وكل ما في الأمر هو أنني كنت أطارد شبح وسراب "كانوو" لكي أعزي وأسلي نفسي!"

"لقد تأكد "فوجي إي" من بقاء والدي وأشقاء "كانوو" على قيد الحياة في بلدتهم من حوالي عشرين عاما مضت. وبالرغم من أن "فوجي إي" كان يعتبر ذلك المكان أهم الأماكن بالنسبة إليه على الإطلاق، إلا أنه كان المكان الوحيد الذي لم يذهب إليه أثناء قيامه بجمع مواد برامجه الوثائقية عن الحرب، ولم يدرجها في خطط إعداد البرامج.

رأى أم "كانوو" عن بعد، وتأكد من هويتها وبقائها على قيد الحياة، إلا أنه لم يقرب منها الميكروفون، ولم يوجه الكاميرا ناحيتها.. ولم يجد الشجاعة كي يفعل ذلك.

على البعد، لمح شيئاً ما يتجاوز حاجز الشعاب المرجانية التي يتكسر عليها الموج الأبيض، ويقترب نحوه مسرعا خلال انعكاس الضوء المبهر للبحر. مع ذلك الشيء اقتربت موجة صغيرة مسرعة تمسح صفحة النهر.

"إنها تبكى"

هكذا قال "طوكوايتشي" فجأة وهو يجذب "فوجي إي" من ذراعه، ويجعله ينظر نحو ظلال الأشجار الباسقة، بينما كان يشير بإصبعه إلى شيء ما.

"الهدوء من فضلكم"؟

هكذا صاح "إيزومي" وهو يضغط على زر التشغيل. أما "قوجي إي" فبعد أن تأكد من إعداد الكاميرا للعمل بدأ يديرها.

صارت الريح الرطبة المشبعة بعبق يود البحر تداعب شعر رؤوس الرجال الثلاثة، وأخذت أوراق شجيرات زهور "وجه الظهر" تهتز بشدة مع الريح، بينما بدأت الزهور البيضاء اللون لتلك الأوراق تعكس الضوء، وفي تلك اللحظة ظهر على البعد مخلوق شفاف اللون يسقط مسرعاً، وبشكل رأسي عبر الجرف.

الريح التي ارتدت بعد ارتطامها بأغصان أشجار الصنوبر، نثرت بعض رمال المقبرة المكشوفة بالعراء، لكن ذلك أنصوت المعهود لم يُسمع!

بينما كان "إيزومي" يوجه الميكرفون باتجاه الجرف، وجه نظرة ذات مغزى إلى "طوكوشوو"، وقال له بصوت خفيض:
"حانت اللحظة.. ها قد حانت اللحظة!"

أما "طوكوشوو" فقد حاول جاهداً أن يرسم ابتسامةً مصطنعة.

وسط بريق قطرات الندى التي تتناثر من سيقان الأشجار المتمايلة وأوراقها الخضراء المهتزة كانت أشعة شمس الصباح تضيئ الجمجمة.

كانت هناك كتلة سوداء غامضة بجانب العظام النظيفة الناعمة التي شابها لون خوخي باهت.

"ما هذا بحق السماء؟"

هتف "إيزومي" الذي كان مشغولاً بالنظر من خلال عدسة الكاميرا.

رفع "فوجي إي" وجهه دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم أشار بإصبعه إلى شاشة الكاميرا، وكانت شفاته ترتعشان.. والدماغ قد هربت من وجهه. وبعد أن حرق "إيزومي" في وجه "فوجي إي" عاد ليوجه ناظريه إلى شاشة الكاميرا، ثم صاح:

"إنه سرطان البحر!"

ما ظهر على سطح الجمجمة الباقية هو سرب من سرطانات البحر، ذات المخالب البنفسجية اللون.

وهكذا سرت إشاعة في كل جنبات القرية ذلك الظهر تقول بأن الجمجمة الباقية قد اختفت.

كان الصبي "شين" هو من نقل هذا الخبر هو "أكيرا" ورفاقه وهم يبدأون اللهو متخذين مواقعهم تحت أشجار الصنوبر العجوز المجاورة للساحة الرياضية المكشوفة، (وذلك بعد انتهاء وجبة الغداء).

سمع "شين" الخبر بدوره من أبيه الذي عاد من الحقل إلى البيت لأخذ طعام غذائه، وقد صادف هذا التوقيت عودة "شين" إلى البيت لالتقاط بعض أغراضه التي كان قد نسيها هناك.

ترك "أكيرا" ورفاقه اللعب وتحلقوا في دائرة حول "شين" لكي يستمعوا منه إلى الحكاية. ارتفع صوت الهمهمة المملوءة بالقلق من الدائرة لتنتشر خارجها، وبمجرد أن وصل ذلك الكلام إلى أول مجموعة خارج تلك الدائرة، فإذا بعدد من هؤلاء الصبية يركضون مسرعين نحو غرف الدراسة، ويصيحون:

"يا للمصيبة.. يا للمصيبة!"

صار عدد من أفراد الشلة الذين يعلمون تماماً بقصة تلك الجمجمة، ومنهم "اوسامو" و"شين" يحدقون بعيونهم الصافية البريئة في وجه "أكيرا" برعب، وكأنهم يطلبون منه تفسيراً لما حدث.

كان "أكيرا" في ذلك الوقت يبدو كما لو كان يحاول كبح دموعه على وشك الانفلات من عينيه، وفي اللحظة التالية انطلق يركض مبتعداً عن الجماهير. كانت تلح على ذهنه في هذه الأثناء المقولة القديمة التي تؤكد بوقوع اللعنات بأشكال مختلفة على رؤوس من يدينسون الأماكن المقدسة المحرمة.

في اللحظة التالية داهمته صرخة:
"تعال هنا!"

كان صاحب تلك الصرخة هو "اوسامو" الذي أمسكه من ذراعه وجذبه نحوه بشده. استرسل "اوسامو" في صياحه:
"أسرع.. فليس هناك وقت!"

لم يكن أمام "أكيرا" سوى أن يتبع رفيقه "اوسامو" الذي يركض أمامه، ويدخل وسط حقل شاسع من قصب السكر تظله صفوف من أشجار الصنوبر.

وسط حلقة صغيرة من الرفاق الذين ألصقوا أجسادهم ببعضها البعض، صاح "شين" بصوت مرتعش، وكأنه دجاجة ترتعد من البرد:
"ترى هل حدث ذلك بسبب ما فعلناه؟"

كاد الرعب يقتل "شين" الذي داهمه خاطر ملح بأنه إذا كانت لعنة الجمجمة الباكية ستحل بأحد فسوف يكون على رأس الجميع، وسينال

الحظ الأكبر من اللعنة والعقاب، حيث أنه كان أسبق من الآخرين في اقتراح العبث بالمقبرة المكشوفة.

"قد يكون مسار الريح قد تغير بسبب تلك القنينة التي وضعناها هناك"

هكذا قال "هيطوشي" الذي كان معروفا بمهارته في طهي الطعام. وعلى إثر هذه الجملة أوماً بعض الرفاق مصدقين ثم وجهوا أنظارهم نحو "أكيرا".

أما الأخير فقد شعر بالحنق لأنهم يحاولون تحميله مسؤولية ما حدث، لكنه عاد ليثبك في أن تكون هذه هي الحقيقة، فلم يستطع أن يرد بشيء.

وهنا صاح "اوسامو" ، وهو يدافع عن "أكيرا":
"يا "أكيرا" .. ليس هناك ما يستدعي القلق"

كان واضحا من خلال نبرة الصوت أن "اوسامو" كان يسعى في سبيل استعادة وضعه، بعد أن جُرحت كرامته أمام الجميع بسبب "أكيرا" خلال الواقعة الأخيرة، وهنا صاح "شين":

"ليس هناك سوى أن نسرع باستعادة تلك القنينة قبل ان يلحظها رجال القرية"

لكنه بعد أن لفظ بهذه الجملة، شعر بالندم بوجه يجعله يوشك على البكاء لأنه أفصح بشيء كان يجب أن يخفيه.

على إثر هذه الجملة حوّل الجميع أنظارهم عن "أكيرا" و"اوسامو" والتزموا بالصمت.

كانت أوراق وأعواد قصب السكر تتمايل مع الريح العابرة وتصدر أصواتا جافة حادة تلف رؤوس "أكيرا" ورفاقه.

شعر الجميع في تلك اللحظة وكأن عيوننا تراقبهم من فوق رؤوسهم وهم يتهايمون بتلك الأسرار، فرفعوا وجوههم نحو السماء دفعةً واحدة!

كان "أكيرا" الوحيد الذي ظل مطرق الرأس يحدق في أوراق أعواد القصب.

إذا كان هناك حديث عن الاتفاق والعهد... فكان من المتفق عليه أن يكون "أوسامو" هو المنوط بمهمة الذهاب لإحضار القنينة. لكن موعد الرهان الذي اتفقوا عليه لم يكن قد حان بعد.. وربما كان المفترض أن يكون "أكيرا" هو المسئول عن القيام بذلك، أحس أنه لن يعود سالما، ولهذا السبب لم يستطع أي من أفراد المجموعة أن ينطق بكلمة.

حين مسح "أوسامو" عرقه المتصبب شعر برغبة ملحة في التبول، فقام بضم فخذية بقوة كي يضغط على عضوه، ثم قال لـ"أكيرا" الذي ظل مطرق الرأس:

"سأقوم أنا بالمهمة"

لم يجبه "أكيرا". وهنا شعر "أوسامو" بالإهانة، وجرح الكرامة بسبب تجاهل "أكيرا" له، فصار يدور بعينيه بين وجوه رفاقه كي يستمد منهم التشجيع على التحرك.

هنا صاح "كاجو":

"إذا كان الأمر يتعلق بـ"أوسامو" فسوف يفعلها"

كان أثر الكدمات واضحا حول عيني "كاجو" الذي كان يشبعه "أوسامو" لطماً، ويبدو أنه كان أول من التقط ما كانت تعنيه نظرات "ايسامو" قبل بقية الرفاق.

بعد أن انتهى من جملته، أوما الجميع برؤوسهم مصدقين على قوله.

" ترى هل لا يزال ذلك المخلوق على قيد الحياة؟"

هنا عاد الصمت الثقيل المطبق يخيم على مجموعة الصبية، ولكن بعد لحظات قطع ذلك السكون صوت إخراج ریح من واحد منهم، فضج الجميع بالضحك، وأخذوا يدفعون بعضهم بعضاً بالأيدي مازحين. رفع "هيطوشي" إصبعه ولوح به في الهواء ناحية أذن "شين" وكأنه يقطعها، ثم قال:

"لا يمكن أن تكون تلك السمكة على قيد الحياة... فلا شك أنها صارت طعاماً لسرطان البحر".

عاد الجميع يضحون بالضحك لمزاح "هيطوشي". وهنا قطع ضحكاتهم صوت "كاجو" محذراً:

"من الأفضل الإقلاع عن الذهاب إلى هناك في ضوء النهار، فقد يأتي بعض رجال القرية إلى هنا ويلمحوننا ونحن نقوم بذلك " لكن "أوسامو" قاطعه:

"إن ما تقوله مفروغ منه ولا داع له.. فسوف أقوم بالذهاب هذه الليلة"

بعد أن أنهى جملته نهض واقفاً وهو يطأ الأوراق الذابلة لقصب السكر التي افترشت الأرض.

في اللحظة التالية، دق جرس بداية المحاضرات، فحث "أوسامو" زميله "أكيرا" - الذي كان لا يزال جالساً - على النهوض، فشرع الجميع في الركض بكل قوة وسرعة نحو مبنى المدرسة، وهم يتبعون أثر "أوسامو" - لكن "أكيرا" ظل وحده واقفاً شاردًا وسط حقل القصب، وكأنه أصيب بالإحباط.

في أثناء ذلك، كان الصوت الشجن الحزين، يسري وسط الريح التي هبت تهز رؤوس عيدان القصب.

"يا زوجي العزيز... سأخذ للراحة مرة أخرى"

هكذا نطقت "ميتسو" بهذه الجملة بعد أن انتهت من مشاهدة المسلسل التلفزيوني، وتناول وجبة الغداء، ثم توجهت إلى الشرفة وركدت تستريح على ظهرها. حين هتفت "ميتسو" بزوجها "كيوكيتشي" كان غارقاً بالتفكير في أمر ما. لكن حين لاحظت "ميتسو" حالته تلك عادت فنهضت من رقدتها وأخذت تحديق في وجهه، فقد لاحظت منذ أمس ذلك التغيير الغريب الذي طرأ عليه وشعرت بالقلق منه، فقالت مغلوبة على أمرها:

"آه.. إنه أمر لا يمكن احتماله، سوف أسبقك وأخرج أولاً "

وهكذا حملت "ميتسو" قنينة المياه البلاستيكية، وتوجهت إلى الحقل دون أن تسأله عن سبب انشغاله.

بعد خروجها بفترة من بوابة البيت نهض "كيوكيتشي" من رقدته وتوجه إلى الغرفة الخلفية.

كان الأطفال كلهم في مدارسهم، فصار البيت هادئاً لا يعكر صفوه صوت واحد.

مد "كيوكيتشي" يده وفتح درج خزانة الملابس القديمة، والنقط لفافة قماشية كان يخبئها هناك في حرص، وهي القماشة التي لف بداخلها ذلك القلم الحبر الأسود. لكن "كيوكيتشي" حين عاد وراجع نفسه اكتشف إنه لا يتذكر كيف استطاع الوصول إلى المقبرة الصغيرة، كل ما كان يتذكره إنه حين أفاق داخل تلك المقبرة وتحسس جيبه لامست أطراف أصابعه ذلك القلم.

حين أخذ "كيوكيتشي" يتحسس القلم بباطن إصبعه السبابة شعر ببروز ما. لقد كان حرف "k" باللاتينية. لم يكن الحرف قد فقد ملامحه وبروزه رغم تلك السنين الطويلة بعد انتهاء الحرب، وحين حاول "كيوكيتشي" العودة مرة أخرى إلى المقبرة لوضع القلم في مكانه الأصلي، كانت درجات السلم الحجرية على الجرف قد اختفت أو تحطمت، وما كان ينتظره هناك هو ذلك الصوت.

إن إدراكه المستمر بأنه سرق شيئاً، من متعلقات ميت كان في حوزته، في لحظات عمره الأخيرة، صار يتبدل من مجرد الشعور بالخزي والعار، إلى شعور بالخوف والرعب من مغبة عبثه بجثة ميت، وذلك مع مرور السنين وطعونه في السن، فقد كانت المقبرة المكشوفة في العراء هي المكان الأخير الذي يتم فيه تطهير جسد الميت، ولذلك فلم يكن مسموحاً لأحد أن يشاهد تلك المرحلة التي يزوب فيها اللحم والجلد، وتتحلل كل السوائل المعبأ بها الجسد، لتبقى العظام نظيفة ناصعة، فتبدأ رحلة الميت إلى العالم الآخر، لكي يستمعوا منه إلى حكايته.

عاد "كيوكيتشي" ليتحسس بإصبعه ذلك الحرف المحفور على القلم، فلما طفا على سطح مخيلته مشهد ذلك الشاب، تغيرت مغالمة

تماماً، تخيل جلده الرقيق وقد ضرب فيه سرطان البحر بمخالبه البنفسجية، فمزقه تمزيقاً، ينسكب من خلاله اللحم المهترئ على صفحة الرمال البيضاء، بينما تفوح منه رائحة الجيفة العفنة كما لو كان ثمرة تجاوزت مرحلة النضج، وسقطت من خلال قشورها المتشققة، أحس أنه يسمع بوضوح صدى احتكاك مخالب وأصداف سرطانات البحر، تتشابك وتتكالب داخل تلك المغارة الضيقة.

تصور "كيوكيتشي" ذلك العدد الذي لا حصر له من تلك العيون الجاحظة، وهي ترقب أصابعه التي تمتد إلى ذلك القلم لتسرقه، بل أنه صار يتخيل أن أظافر ذلك الشاب (الذي يفترض أنه ميت) صارت تتحرك على حين فجأة، ثم انقلب في رقدته ورفع رأسه.. وبعدها تتسرب صرخة ليس لها صوت من ذلك الفراغ العميق المظلم، وكأن فم الميت قد انفتح عن قصد.. أو كأن الفك الأسفل قد تآكل وسقط عفويا، ثم تنسكب سرطانات البحر الصغيرة مع المقلتين، من تجويف العينين.

تسائل "كيوكيتشي" في نفسه، وتشكك من أن يكون قد تسبب في أن يجعل ذلك الشاب (الذي كان لا يزال على قيد الحياة) فريسةً لذلك العدد الضخم من سرطانات البحر!، أو قد يكون نهوض ذلك الجسد إلى أعلى مجرد خداع للبصر ناجم عن شعوره البالغ بالرعب! لم يكن له سبيل إلى معرفة الحقيقة... لكن ما كان متأكداً منه أنه كلما مر الوقت والزمن، كلما تعاظم لديه الشعور بالخزي والعار والرعب والفرع.

دائماً.. عندما يكون "كيوكيتشي" بمفرده، تراوده تلك الخواطر والذكريات على حين فجأة، فيسمع ذلك الصوت المعهود!

بعد مرور بعض الوقت من تلك الواقعة، سرت شائعة تقول إن صوت بكاء ونحيب، يصدر من ناحية المقبرة المكشوفة في العراء، تقول تلك الشائعة إن شخصاً ما قد وضع تلك الجثة هناك، وأن تلك الجمجمة تراقب أفق البحر بينما تواصل النحيب.

من خلال الكلمات التي تسربت من فم أبيه، وهو سكران ثمل، عرف أهل القرية أخيراً أن صاحب تلك الجمجمة هو أحد أفراد الفرق الخاصة الانتحارية، لكن طبقاً لما قاله أبوه، فهو يؤكد إنه لم يضع الجثة في ذلك المكان الحالي أبداً، كان يرجح أن يكون الجنود الأمريكيون قد عبثوا بتلك الجثة ونقلوها من موضعها الأصلي أثناء قيامهم بتفكيك درجات السلم الحجرية ونقلها بعيداً.

لكن "كيوكيتشي" لم يكن يعتقد ذلك. كان يعتقد أن ذلك الشاب صار يزحف على بطنه، وهو يحمل فوق ظهره مئات من سرطانات البحر، حتى لفظ أنفاسه عند ذلك الحجر الذي اسند ذقنه فوقه!

وهكذا بينما كان "كيوكيتشي" غارقاً في أفكاره، وهو يقبض بكفه على القلم الحبر، لمح كتلة من الغيوم تزحف في السماء عبر زجاج النافذة المغبر. لكنه عاد أكثر من مرة يقول في سريره، وهو يحاول إبعاد هذه الفكرة عن ذهنه:

"أبدأ .. أبداً إن ذلك لم يحدث! مع ذلك الجرح العميق المحفور في صدغه، لم يكن من المعقول أن يكون على قيد الحياة وقتها بأي حال من الأحوال!"

لكن "كيوكيتشي" عندما ذهب لكي يعيد القلم الحبر إلى مكانه الأصلي، رأى بعيني رأسه الجمجمة ترقب الأفق البعيد للبحر.. كما أنه سمعها تبكي!

عمل "كيوكيتشي" باليابان الأم لمدة عشر سنوات متواصلة بعد تخرجه في المدرسة الثانوية. لكنه اكتشف إنه مهما ذهب بعيداً فلم يكن له ان يستطيع الهروب من طيف ذلك الشاب الصغير، ولا من صوت نحيبه.

كان يسائل نفسه دائماً:

"لماذا يجب عليّ أن أعاني من مجرد إقلامي على أخذ قلم حبر حقير؟"

لكنه كلما ظن أنه نسي الأمر كان ذلك الصوت يعاوده فجأة ويقض مضجعه.. صوت الريح، يعود ليذكر إنه مهما برر فعلته فإنه لا يستطيع أن يتخلص من رعبه ومخاوفه.

وبعد أن عاد "كيوكيتشي" إلى القرية، وبدأ حياته بها مرة أخرى بدأ يعتل نفسياً، وربما كان المحرك لذلك هو بدء عملية جمع بقايا عظام قتلى الحرب، وإحساسه أن الأمر سوف يتطور إلى كشف هويته الحقيقية لصاحب الجمجمة الباكية، وبالتالي انفضاح سره، واتهامه بالسرقة... ومن هنا صارت إثارة شائعة بالقرية كلها تخيف وترعب الجميع، وتمنع أياً منهم من مجرد التفكير في الاقتراب من تلك الجمجمة الباكية بالذات، لكن الواقع أنه حتى لو كان أمر صاحب تلك الجمجمة قد انكشف، لما كان أحد من أهل القرية سيلوم "كيوكيتشي" عما فعله، بل ربما كان الجميع سينفجرون ضحكا إذا علموا أن هذا كان هو السبب الأساسي وراء اعتلاله نفسياً. ومع ذلك لم يتصور "كيوكيتشي" أبداً أن مخاوفه ستزول مع ذلك السيناريو.

قام "كيوكيتشي" ليلف القلم الحبر مرة أخرى بقطعة القماش ثم دسه في جيبه، وكان يضمّر في نفسه أن يذهب الليلة لإعادة القلم إلى مكانه في تلك المقبرة المكشوفة في العراء. كان لا يهتم بعدم حدوث أي تغيير أو أي طارئ يذكر، حتى إعادته لذلك القلم، لكن كل ما كان يعتري ذهنه أن هذه ستكون فرصته الأخيرة.

خرج "أكيرا" من بيته زاعماً أنه ذاهب ليعيد كتاباً كان قد استعاره من "أوسامو"، ثم أسرع الخطو في الطريق متجهاً نحو مصب النهر.. لم تكن هناك رياح تهب حول المكان، وكان جو الليل الصافي ونسيمه، يبعثان على الشعور بالانتشاء والراحة.

من تأثير ضوء القمر الساطع، لم يكن يبدو بسماء الليل سوى عدد قليل من النجوم يمكن حصرها بسهولة. كان عقب زهور الـ "إيجو" يدغدغ أنفه، ومن حين لآخر كانت ترد إلى مسامعه أصوات أقدام، وأصوات حشرات تدور وتجول في أعماق الأحرش الجبلية التي تحد الطريق من الجانبين.

بعد السير لفترة ما، انتهى ذلك السور الحديدي الذي يحد الطريق من الجانبين، والذي كان يبدو وكأنه تعويذة تقف حائلاً دون قفز الأشجار إلى نهر الطريق، ومن هذه النقطة ظهر ذلك الدرب الممتد نحو مصب نهر "إيري غامي غاوا" طويلاً لا تبدو نهايته.

وطأ "أكيرا" بقدميه ذلك الدرب الذي فرشته ذرات الحجر الجيري بشكل مستو، وكان أحداً ما كنس الدرب ونظفه لتيوه. لمح "أكيرا" أمامه فجأة جمجمة صغيرة في حجم جمجمة طفل رضيع تتحرك على الدرب وتقطع بالعرض، لكنه بعد أن دقق النظر اكتشف أن ذلك ما

هو إلا صدفة حلزونية بيضاء، حملها على ظهره حيوان من حيوانات المحار اسمه "يادوكاري". تذكر في هذه اللحظة إنه رأى نفس المشهد منذ زمن بعيد.

شرع حيوان الـ"يادوكاري" وهو يحمل قوقعته في التحرك بطول الطريق مبتعداً عن "أكيرا"، فتبع "أكيرا" أثره خلال الدرب الأبيض المغطى بسقف من أغصان أشجار "المانغلوب" المتشابكة، وهي الأشجار التي كانت تمتد في كثافة على حافة النهر.. بينما يواجهها على الجانب الآخر من الدرب أشجار مختلفة الأنواع والأشكال تكونت منها غابة كثيفة، وبعد السير لمسافة طويلة.. خرج حيوان الـ"يادوكاري" عن الدرب واختفى خلف أشجار الـ"مانغلوب". في هذه اللحظة ظهرت حشرة من حشرات الـ"يراع" الفوسفورية المضيئة، وأخذت تدور حول "أكيرا" وضوء ذيلها يضيئ وينتفئ في حركة منتظمة، وارتفعت في الفضاء تطير فوق مجموعة من زهور "وجه الظهر"، ثم اختفت بين اكمتين مرتفعتين أضاءهما ضوء القمر.

بعد أن اقترب "أكيرا" من دغل زهور "وجه الظهر" اتجه إلى الجرف وبدأ يتسلقه في خفة وسرعة. كانت كل نرة من ذرات الرمال تتلألأ تحت ضوء القمر وكأنها قطع من الكريستال. مد "أكيرا" يده خلال أعواد نبات "وجه الظهر" الممتدة المتشابكة لكي يضع يده على الحجر الذي يقع عند مدخل المقبرة المفتوحة في العراء، ثم بدأ في التسلق.

من هناك ظهرت أمامه بانوراما مفتوحة متسعة من مصب نهر "إيري غامي غاوا" حتى الخليج الصغير، وحتى النقاء خط أفق البحر

مع السماء، وفي هذه اللحظة شعر أن هذا النهر وهذا البحر كما لو كانا عالماً آخر لم يشهده من قبل، وذلك تحت ضوء القمر المرسل عليهما. وجه "أكيرا" ناظره نحو تلك الجمجمة الباكية وزجاجة المايونيز الفارغة الملقاة بجانبها. كانت زجاجة المايونيز - التي يبدو أنها انزلقت من فوق الحجر في وقت ما - راقدة على جانبها ولم يتبق بداخلها سوى كمية قليلة من الماء.

كان يبدو أن كمية الطحالب والفطر قد نمت داخل الزجاجاة، فقد كانت هناك رائحة عطنه فجة، نفوح من تلك الطبقة السمكية الخضراء التي كست الجدار الداخلى للزجاجة البلاستيكية، وكان الماء عكراً راکداً.

أراد "أكيرا" أن يستطلع أمر سمكة الـ"تيرابيا" الصغيرة التي تركوها هناك داخل الزجاجاة، لكنه تردد في أن يقوم برج الزجاجاة من أجل أن يبحث عن السمكة خشية أن نفوح رائحة عطنه أشد من الرائحة الحالية، خاصة وهي داخل هذه الحفرة الضيقة التي لا تسمح بانتشار الرائحة مع الأثير. مد "أكيرا" يده نحو الجمجمة الباكية، وأخذ يتفحص بقايا العظام والملابس والحذاء العسكري المتناثرة بجانبها. لم يكن يشعر بأي خوف، بل إن ما أستحوذ على مشاعره هو نوع من الإحساس بشوق غريب إلى هذه العظام التي ظلت أكثر من أربعين عاماً تتطلع إلى ذلك البحر الواسع الذي يقع باتجاه الشمال. وعندما مسح بإصبعه قمة رأس الجمجمة استشعر برودة لذيذة سرت خلال أطراف أصابعه. وأثناء مروره بإصبعه على الجمجمة وعلى العظام التي تآكلت بفعل رياح البحر بشكل أملس مستو، أحس بوجود تعبير واضح. نظر "أكيرا" إلى الفجوة الغائرة الموجودة أعلى الصدغ الأيسر للجمجمة. كانت الفجوة غائرة لكن قطرها كان صغيراً.

أخذ يتحسس بإصبعه دوران الفجوة الصغيرة فانزلقت العقلة العليا لإصبع السبابة داخلها. في هذه اللحظة ادرك "أكيرا" سبب صدور صوت البكاء من تلك الجمجمة. أجل.. من مرور الريح من خلال تلك الفتحة الصغيرة. كانت حقيقة الصوت تأتي من خلال نفاذ الريح خلال فتحتي العينين، ويتردد صدها داخل تجاويف الجمجمة، ثم خروجه أخيرا من تلك الفتحة للجرح الغائر بعظمة الصدغ العليا.. وذلك الجرح الذي أودى بحياة الشاب ليصدر في النهاية ذلك الصوت الباكي.

حمل "أكيرا" الجمجمة بين يديه ورفعها لأعلى، وعندما عاد ليشرع في وضعها مرة أخرى فوق الرمال، شعر بألم فظيع في أصابع يديه من أسنان حامية أطبقت عليها!

صرخ "أكيرا" صرخة عالية، وهو يطيح بذراعه بعيدا. كانت مخالبا احد سرطانات البحر التي ظهرت من خلال تجويف عين الجمجمة تطبق عليه، وفي لحظة تخلصه من الجمجمة بإلقائها بعيدا بكل قوته.. كان ظفر إصبع السبابة مع جزء من اللحم قد انتزع. أما الجمجمة فقد هوت بسرعة في خط مستقيم نحو أسفل الجرف. ومع ذلك السقوط السريع تردد في جنبات الفضاء صوت حزين ابتعد مسرعا، وبعدها بلحظات كانت شظايا عظام الجمجمة البيضاء تنتثر في جميع الاتجاهات وسط الظلام مثل كرة من كرات الألعاب النارية المتفجرة.

أخذت الدماء الحارة تقطر من طرف إصبعه الجريح وتتحدر على بنطاله القصير، ثم على فخذة العاري. قبض "أكيرا" بقوة بقبضة يده اليسرى على الإصبع، ثم ضم يديه إلى صدره متألما، وتكور في

الأرض جالسا على ركبتيه داخل المقبرة المكشوفة، واخذ يحاول جاهداً حبس صرخات الألم، فصار يئن أننا محموماً حتى فوجئ بصوت شخص ما يناديه باسمه! اندهش "أكيرا" لسماعه ذلك الصوت فرد متسائلاً:

"أبي"؟

ظهر وجه أبيه أمامه، وظل يحدق فيه مشدوهاً. أجل. ان من كان يقف أمامه الآن هو أبوه "كيوكيتشي" بشحمه ولحمه، وهو يفتح عينيه عن آخرهما، والعرق يتصبب من وجهه، بينما كان متشبثاً بقوة بأعواد نبات "وجه الظهر" الطويلة المتشابكة، والتي بدت وكأنها ستمزق من ثقل جسد "كيوكيتشي" المتعلق بهما.

فجأة، تتأثرت قطرات من الماء من داخل قنينة المايونيز البلاستيكية لتنتشر على الرمال، وهنا تتم "أكيرا" كرد فعل تلقائي: "إنها حية".

رغم أن سمكة الـ"ثيرابيا" هذه كانت مهترئة هنا وهناك حتى أن عظام عمودها الفقري كانت مكشوفة عند الذيل، بعد أن زال عنها اللحم والجلد، إلا أنها لا زالت على قيد الحياة وتصارع الموت. لقد انقلبت تلك السمكة المشوهة بحركة قوية سريعة لتصير على ظهرها، وبحركتها العنيفة تلك تتأثر الماء العفن على الرمال وكأنها تسخر من "أكيرا" الواقف مشدوهاً أمامها مع أبيه.

كانت طائرة الركاب ترتفع عالياً في السماء وهي تدور ناحية اليسار، وتحتها ذلك الجرف الشاهق المطل على البحر أقصى الطرف الجنوبي لجزيرة "أوكيناوا". ومن مقعده عبر زجاج النافذة المجاورة

أخذ "فوجي إي" يتأمل الجزيرة التي أحاطت حوافها الأمواج البيضاء التي تتكسر على الشعاب المرجانية، لكنه ما أن عاد وأسند رأسه إلى ظهر مقعده حتى أغمض عينيه في هدوء. وفي أعماق ظلمة عينيه كان يتخيل مشهد الجزيرة وهي تختفي شيئاً فشيئاً، وكأنها تتكور وتنكمش. وفي اللحظة التالية تخيل "فوجي إي" الجزيرة قد تحولت إلى كتلة على شكل حلقة مستديرة صغيرة محاطة بالأمواج ذات الزبد الأبيض، وصارت تهوي بسرعة شديدة إلى أسفل في خط رأسي، خرجت من فم "فوجي إي" صرخة قصيرة لا إرادية، فانفض من مكانه.. إلا أن حزام الأمان المربوط حول خصره منعه من ذلك، وجعله يفيق من إغفائه المفاجئة. ولما كان "أيزومي" الذي كان يتصفح مجلة فردها فوق فخذه— قد انزعج من تلك الحركة المفاجئة، فقد سأله:

"ماذا بك؟ هل أنت على ما يرام؟"

رد عليه "فوجي إي"، وهو يتململ في جلسته:

"أبدأ.. لا عليك"

ثم ضغط على جفنيه اللذين أحاطت بهما هالة سوداء، ليغلقهما بأصابعه، كانت ذكريات الليلة الماضية تراوده بشكل متقطع، ثم تمت قائلاً "كانوو"! كان "فوجي إي" يسرع الخطو خلال الطريق المؤدي إلى مصب نهر "ايري غامي غاوا"، بينما ظل يردد اسم "كانوو" مراراً في سره،، كانت شائعة اختفاء الجمجمة الباكية قد سرت في جميع أرجاء القرية، أثناء فترة الظهر، عاد "فوجي إي" إلى الفندق الشعبي الصغير الذي يقيم به ليأخذ قسطاً من الراحة، لكنه ما أن دخل مطعم الفندق مع "أيزومي" حتى لاحظ تغيراً ملحوظاً على سلوك صاحب الفندق وزوجته، وعندما كانا يسيران بشوارع القرية لاحظا حدة النظرات الموجهة إليهما من أهالي القرية. أتخذ "فوجي إي" قراراً بالانسحاب

من هذه القرية مؤقتاً، والذهاب إلى مدينة "ناها"، وكان ينوي مراقبة أحوال القرية. في نفس الوقت الذي يتابع فيه الاتصال بمكتب شركته الرئيسي، للسماح له بمد فترة التصوير وجمع المادة الوثائقية. لكنه قبل ذلك كان يريد أن يستوضح شيئاً واحداً.

مع حلول الليل خرج "فوجي إي" بمفرده، كإن يريد أن يتأكد بعينه من وجود الرفات المسجأة بالمقبرة المكشوفة، وكذلك المتعلقة الخاصة بتلك الرفات. كان يشعر بأنها المرة الأخيرة التي سيتاح له فيها أن يقوم بجمع مواد وثائقية إعلامية عن القوات الانتحارية أثناء معركة "أوكيناوا".

فقد "فوجي إي" ثقته بنفسه، وفي قدرته على التغلب على الكثير من الصعوبات والعقبات التي تغلب عليها خلال إعداده لعدة برامج حول هذا الموضوع.

زار "فوجي أي" جزيرة "أوكيناوا" و"هيروشيما" ومناطق القتال الضاري بجزر جنوب المحيط الهادئ والتقى بعدد من شهود تلك الأحداث، والتقط بالكاميرا العديد من الجروح التي خلفتها الحرب. لم تكن مشاعره قد تغيرت أبداً من منطلق أنه حتى لو استطاع أن يقوم بإعداد برنامج حول هذا الموضوع مرة واحدة في السنة، مثل مراسم العيد الصيفي السنوي الخاص باستقبال أرواح الموتى، فسوف يكون هذا أمراً ذا معنى كبير وعميق. ومع ذلك أصبح يشعر أنه لم يعد قادراً على الهرب من إحساسه بالإرهاق الشديد الذي نشب بأظفاره في جسده وروحه. كان صوت حفيف أوراق أشجار الـ"مانغلوب" المتكاثفة يتردد صدها في الأرجاء تحت ضوء القمر، بينما كان ينحدر عبر الدرب المتجه من الطريق الإسفلتي إلى مصب النهر. تحت خطواته

المسرعة القوية أخذت تتناثر ذرات تراب الحجر الجيري. استمر "فوجي إي" في سيره بينما هاجمته رائحة يود البحر من الاتجاه المعاكس من الدرب، وفجأة باغته صوت "كانوو" هامساً في أذنه: "ألا تشعر بالإحباط؟"

في هذه اللحظة طفا على ذاكرته وجه "كانوو" الملتوي من الألم على وهج شعلة عود التقاب!

إلا أن "فوجي إي" .. رغم الارتفاع الكبير فإنه لم يصب بشيء! يعود الفضل في ذلك إلى الطبقة الطينية السمكية المترakمة بقاع النهر.. كان "فوجي إي" يقف مشدوها وهو غاص في الطين، ومستوى ماء النهر يصل حتى رقبتة، وكان يرفع رأسه إلى اعلى ويحملك في الجسر المعلق فوqه. شعر بشيء ما يصطدم بساقيه وخصره. أخذ ذلك الشعور يتحول إلى إحساس بالألم، ويزايد بشكل سريع، حيث كان ما يتخبط به هو سرب كبير من اسماك الـ "ثيرابيا" الكبيرة الحجم تسبح بسرعة في اتجاه معاكس لتيار النهر، مدفوعة بقوة مياه المد القادمة من الخليج، وكانت ذيول الأسماك وأشواك ظهرها القوية الصلبة تكيل له الخدوش والجروح تباعاً.

شعر مع الألم الرهيب، وكان هذا السرب من الأسماك يقبع هناك بانتظاره فترة طويلة من الزمن منتظراً فرصته للانقضاض عليه، وقضم لحم جسده بعد أن فرغ من قضم لحوم أجساد رفاقه في السلاح، وحفظ طعم ذلك اللحم في كل خلاياه!

أخذت اسماك "الثيرابيا" تواصل الارتطام بجسد "فوجي إي" وتحتك خياشيمها وأجنحتها الشوكية الصغيرة الصلبة به، وتتقدم في طريقها صانعة من حوله دوامات صغيرة كثيرة لا حصر لها. لم يكن

"فوجي إي" بالنسبة لتلك الأسماك ذات الطبيعة الاستوائية سوى عائق من تلك العوائق الطبيعية التي تقف في طريق تقدمها بمجرى النهر.

استطاع "فوجي إي" أخيراً أن يخرج من النهر إلى الشاطئ، وسلك طريقه إلى فندقه الصغير، وبعد أن أخذ دشاً أيقظ رؤوسه "إيزومي". وصل الاثنان إلى مدينة "تاها" مع انتصاف الليل بسيارة أجرة.

بينما كانا ينتظران موعد أول طائرة تطلع في الصباح الباكر، اخذ الاثنان يمضيان الوقت بالانتقال من حانة إلى أخرى، يتجرعان الخمر، كما قضايا بعض الوقت داخل مقهى يعمل على مدار الساعة.

شعر "فوجي إي" أن ما حدث منذ عدة ساعات، كما لو حدث له منذ زمن بعيد، وعندما فتح عينيه ليحدق فيما حوله، نظر إلى الخارج عبر زجاج النافذة، كان خيال الجزيرة قد اختفى تماماً مع الغيوم التي كانت تخيم على ذلك الزجاج، وبدأ يتساءل في سريرته:

"ترى هل استطاع "فوجي إي" أن يرى منظر الجزيرة."

هنا هبت ريح مفاجئة فانطفت شعلة النقاب. ومع ذلك الانطفاء المفاجئ اخذ الخيال الأبيض الباهت يبتعد تدريجياً من وجه "كانوو".

بدأ "فوجي إي" يعدو بكل قوته كي يلتقط الجمجمة التي ظهرت أمام عينيه وهي تهوي بينما كان يصيح باسم رفيقه:
"كانوو".

في اللحظة التالية، اخترق صدره إحساس موحش حزين.

شعر "فوجي إي" بأن آخر صوت سمعه من فم "كانوو" على ضوء شعلة النقاب المتراقصة كان هو نفسه ذات الصوت. مد "فوجي إي"

كلا ذراعيه عن آخرهما حتى أن أطراف أصابعه لم تكن تبدو بوضوح وسط الظلام، لكن تلك الجمجمة الباكية البيضاء كانت قد تحطمت وتناثرت أمام عينيه.

مال "فوجي إي" بجسده إلى الأمام، محققاً في شظايا الجمجمة المتناثرة، هنا سمع شخصاً ما يناديه باسمه لاهثاً.

كان الصوت يصدر من مكان ما فوق رأسه، وعندما رفع رأسه لأعلى، كي يبحث عن مصدر هذا الصوت لمح تحت ضوء القمر وجه رجل يتشبث بأعواد نبات "وجه الظهر" الطويلة الملتفة حول بعضها، وهي الأعواد التي كانت تتدلى من أغصان شجرة ضخمة، وبجانب صاحب ذلك الوجه شاهد صبياً يقف في وضع الخشوع في الدعاء، يضم كفيه أمام صدره. عاد "فوجي إي" لينهض على قدميه، وهو يرمق شظايا الجمجمة المتناثرة. كانت الجمجمة التي ظلت لسنوات طويلة هدفاً مستمراً للرياح والأمطار وقد تبعثرت متفتتة وهي تتلقى أشعة القمر وتعكسها.

إن نوعاً من الغضب أو الحزن أو ما شابه ذلك من المشاعر لم يتفجر داخله أبداً، حتى أنه شعر في ذلك الموقف بأن صاحب تلك الجمجمة سواء كان "فوجي إي" أو غيره من رفاقه، قد يكون أكثر سعادة بهذه النهاية بدلاً من أن يظل معرضاً لتسلية الناس، وهو مستمر بالبكاء. وجد "فوجي إي" نفسه يعود أذراجه ليسلك نفس الطريق الذي جاء منه، وعندما وصل إلى مكان الجسر المعلق شرع في خلع سترته المخضبة بالطين وطوح بها بعيداً، لكنه فقد توازنه، ولم يكن هناك من حوله من يقوم بالإمساك به، فسقط إلى النهر الذي يقع أسفل الجسر.

وصل إلى هذا المكان ليقف وحده في العراء، يطالع ذاك الجرف، وحتى "كيوكيتشي" الذي كان معروفاً بشجاعته وجسارته شعر بنوبة من الرعب تجتاح جسده لبضع لحظات، وهو ينظر إلى مصب النهر وسط ظلمة الليل حيث تبدو تلك المقابر القديمة التي حُفرت على ضفتي النهر، وكانت تلك الجمجمة الباقية البيضاء تبدو واضحة دائماً داخل ذلك التجويف المربع المظلم.

أدرك "كيوكيتشي" إنه لن يعود ليرى ذلك المشهد، ولن يعود لسمع صوت تلك الرياح مرة أخرى.

كانت شظايا الجمجمة خفيفة الوزن، وكان حين يرفع القميص الملفوف إلى أعلى يسمع صوت تلك الشظايا تحتك ببعضها، ويتحسسها أحياناً من خلال قماش القميص.. كان يشعر بها تنفتت إلى قطع صغيرة.

حدث "كيوكيتشي" ابنه على السير:
"لنعد أدر اجنا"

ثم شرع في السير أمامه متجهاً نحو مساكن القرية.

حين بدأ يطأ الجسر المعلق كي يعبره، لمح "فوجي إي" أسفل الجسر، وهو يقف مستمراً مغمض العينين، وهو غاص في النهر حتى صدره.

لم يكن النهر بذلك العمق الذي يهدد بالغرق، كما أنه لم يتعرض مطلقاً لخطر الغرق من قبل.

حين عاد إلى بيته القى بقميصه المكور داخل مخزن الأمتعة ثم ذهب ليستحم. بعد ذلك نادى على ابنه "أكيرا"، وقام بدعك ظهره

وتحميمه. أما "أكيرا" الذي كان يظن أن غضب أبيه سيصب عليه لا محالة بين لحظة وأخرى، فقد ظل يعاني من الارتباك والرهبة. في تلك اللحظات كان "كيوكتشي" يساعد إبنه في الاستحمام، وينظر إلى جسده الذي لم يكن قد أشتد بعد، أخذ يعود بذاكرته إلى الورا، ليذكر أنه حين التقى بذلك الجندي لم يكن قد أشتد عوده، وانه كان فتياً نضراً صغيراً.

بعد أن خرج من الحمام صار يتجول بين خمارة وأخرى في شوارع القرية حتى عاد أخيراً إلى البيت قبل بزوغ الفجر، وبالرغم من إفراطه في الشرب، إلا أنه لم يكن يشعر بالثمالة أو بالرغبة في النوم.

دخل الحمام مرة أخرى، وغسل عرقه بالماء ثم أخرج قطعة القماش الملفوفة وبداخلها قلم الحبر الأسود من جيب بنطاله الذي كان قد خلعه، ثم عاد إلى غرفته وبدل ملابسه.

بعد ذلك راوده ذلك خاطر، ف شعر بألم شديد ينخر أعماق جسده، في نفس الوقت الذي شعر فيه بدفعة من الغضب المتأجج تتفجر من داخله.

لكنه عاد ليؤكد لنفسه بان الأمور لم تنته بعد؛ أجل.. ولا واحد من تلك الأمور.

هكذا أخذ "فوجي إي" يحادث نفسه وهو يقاوم شعوراً عميقاً بالإرهاق والتعب. كان يدرك بأن شيئاً ما - على العكس - يشرع في البدء، لكنه لم يستطع أن يفسر بالتحديد ماهيه أو ملامح ذلك الشيء الذي يوشك على البدء.

شعر شعوراً قوياً بأنه من الواجب عليه أن يقوم بزيارة بيت
"كانوو" القديم، حتى لو كان والداه قد رحلا عن الدنيا بالفعل، وأن عليه
أن يواجه بجسده العاري المجرد كراهية وضغينة زملائه الفدائيين
كلهم، الذين رحلوا عن هذه الدنيا مهتماً كلفه ذلك من ثمن.

هكذا حادث نفسه، واقنع نفسه.. حتى لو انتهت مغامرته تلك بأن
يعود صفر اليدين وبلا نتيجة أو عائد.

وبعد ذلك.. ظهرت الجزيرة مرة أخرى من خلال ثغرة في
السحب المتكاثفة.

أجل.. بدت تلك الثغرة في عينيه كما لو كانت دغلا من الأعشاب
البحرية آكلة الحشرات، تفتح فاهها الغائر وسط ذلك البحر الواسع
الداكن الزرقة.

كان البحر في الفجر المظلم هادئاً ساكناً.

خلع "كيوكيتشي" صندله المجدول بالخوص وألقاه على رمال
الشاطئ، ثم شمر بنطاله إلى أعلى الركبتين، ثم رفع يده اليمين بقميصه
الذي لف به شظايا عظام الجمجمة وبدأ يسير خائضاً الموجات
المتتابعة التي تزحف نحوه.

في الليلة الماضية، وبعد أن نزل "كيوكيتشي" عن الجرف قام
بجمع شظايا الجمجمة في قميصه الذي خلعه، وقد صاح في "أكيرا"
الذي شرع في مساعدته في ذلك. وبعد ان انتهى من التقاط حتى
الشظايا الصغيرة التي كانت في حجم أكبر قليلاً من ظفر إصبعه
البنصر، أخذ يخبط بقدميه في عف التربة التي تراكمت عليها أكوام
من أوراق الأشجار المتعفنة العظنة، والتي كانت تلمع تحت ضوء

القمر، ثم ربط القميص حول يده اليمنى، ورفع تلك اليد عالياً في الهواء، وعندما رفع وجهه ينظر نحو تلك الفتحة المربعة الطويلة المستعرضة بالجرف، أدرك خواءها.

كان "كيوكيتشي" يخرج كثيراً من الحانة بلا هدف، بعد أن يصاب بالثمالة، ليجد قدميه تقودانه دون وعي إلى ذلك الجرف.

بينما كان يستحم بالماء البارد استيقظت زوجته "مستو"، وأعدت له طبقاً من الأرز المنقوع في الشاي الأخضر. وبعد أن خرج من الحمام قام بالتهام محتويات الطبق دون أن يلفظ كلمة واحدة.

ثم التقط قميصه الملفوف من داخل خزانة الأمتعة، وانطلق باتجاه البحر. كان الموج يغسل قصبتي ساقيه، ويبلل ركبتيه. وكان الشاطئ يقع في الناحية الشرقية بعد الخروج من الخليج عند مصب نهر "إيري غامي غاوا". ذلك الشاطئ الذي خلا من أي مظهر من مظاهر العمران يمتد لمسافة تربو على الكيلومتر، وأشجار الموز البري والأعشاب المتكاثفة تحت الجرف تصنع حزاماً داكن الخضرة. وكان خط أفق البحر مفتوحاً على مرمى البصر باتجاه الشمال، وكانت الغيوم المتراكمة التي اختلطت ألوانها بين الأحمر والذهبي تصعد في السماء التي اكتست بلون لبني باهت، وتتبئى ببدء يوم آخر شديد القَيْظ.

ظل "كيوكيتشي" يخوض الأمواج غير عابئاً بابتلال بنطاله وهو يحدق في البحر المفتوح أمامه.

فك "كيوكيتشي" قميصه المعقود، والتقط الشظايا البيضاء. وحين قبض عليها سمع أصواتها وهي تتفتت، وفي اللحظة التالية قام بنشرها فوق صفحة الماء.

اختلطت شظايا العظام بالرمال المتحركة المتداخلة تحت قدميه في عمق الماء، ثم صارت أمواج الجزر تحملها وتمضي بها بعيداً لكي تنتشرها هنا وهناك فوق صفحة البحر. وبعدها كانت الأمواج تعود لتزحف نحوه في دفعات متلاحقة بينما تترقرق فقاعتها مع الأضواء الأولى للفجر. قام "كيوكيتشي" بطي قميصه ثم ربطه بالحزام، أخرج قلم الحبر من جيبه. هذا القلم الحبر الذي لم يستخدمه ولا مرة واحدة. منذ التقطه من سنوات بعيدة، ولم يعد يبدو في ناظريه تحت ضوء الشمس سوى قلم تعس بأئس قديم الشكل.

رغم أنه ألقى به بعيداً بكل قوته.. إلا أن المسافة التي طارها القلم لم تتعد أكثر من ثلاثين متراً!

حين خرج إلى الشاطئ، كانت الرمال قد بدأت تدب فيها سخونة الشمس، ومن اتجاه الغابة المتكاثفة فوق الجرف كانت تتوارد أصوات أزيز الجراد الصيفي الأسود. ظل "كيوكيتشي" يقطع الشاطئ الرملي وهو يمسك الصندوق الخوص بيده، بينما بدأ يتصبب عرقاً تحت ظلال الأشجار، شرع في اختراق دغل الأعشاب البرية متجهاً نحو الطريق الإسفلتي. توقف "كيوكيتشي" فجأة واخذ يجول بعينه، فرأى أطراف الأعشاب البرية ذات الأشواك المدببة تتمايل مع الريح. وهناك على البعد، كانت الأمواج التي تنكسر على قمم الشهاب المرجانية تتلألأ بيضاء اللون وسط زرقة البحر المتزايدة مع سطوع الشمس. وخلال أصوات أزيز الجراد الأسود التي يتردد صداها مع الريح التي تهب

من اتجاه البحر، استطاع أن يميز - مرة أخرى- ذلك الصوت
المعهود!

كان ذلك الصوت المعهود الذي تحمله رياح البحر خافتاً ضعيفاً
منقطعاً، يتخلل مسام صدر "كيوكيتشي" وينفذ منها إلى تجاويف رنتيه.
ارتفع صوت الأمواج، ومع هذا فلم يتلاش صوت الريح أبداً.

انتهت

